حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة

العدد 21، نوفمبر 2022

قطٌّ كهذا...
(قصّة مترجمة)

اختلاف الشعوب من اختلاف ثقافاتها

قراءة في كتاب
"خمسة دروس في التحليل النفسي"

ملفّ العدد:
الشعب والسيادة
(الجزء الثالث)

ملفّ العدد: الشعب والسيادة (الجزء الثالث)

تقرؤون في هذا العدد:

الاحتجاج كشكل جمالي في الفضاء العمومي ص. 4-7

هيبة المسعودي

تجارب البناء السيادي في الوطن العربي في فترة ما بعد الاستقلال: نماذج مصر والعراق والجزائر ص. 8-11

خليل القادري

البذور المهجنة والسيادة الوطنية ص. 12-15

إسكندر بن عمر

سيادة الشّعب في نظام الاقتراع على الأفراد ص. 16-18

علي غوائدية

اختلاف الشعوب من اختلاف ثقافاتها ص. 19

كريمة بريكي

قراءة في كتاب "خمسة دروس في التحليل النفسي" ص. 20-21

مريم مقعدي

قط كهذا... قصة لفرانسواز جيرو ص. 22-23

ترجمة: رجاء عمّار

حروف حرّة

مجلّة شهرية تصدر عن
جمعية تونس الفتاة

تأسّست في مارس 2021

رئيس التحرير
حمزة عمر

فريق التحرير
أنيس عكروتي
سوسن فري
فهمي رمضاني
مريم مقعدي

التصميم
حمزة عمر

صورة الغلاف
Nadine Redlich/Unsplash

للتواصل معنا
redaction@tounesaf.org

إصدارات الجمعية متوفّرة للتحميل

في صيغة رقمية على الرابط:

https://tounesaf.org/?page_id=27761

الاحتجاج كشكل جمالي في الفضاء العمومي

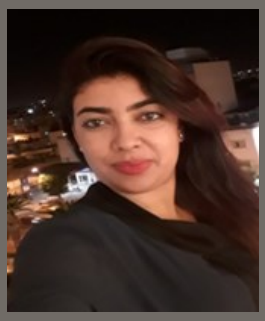

بقلم: **هيبة مسعودي**
دكتورة في الفلسفة

> *ثمّة مع تحقق المشترك بين الفنّي والسياسي، تحقّق لضرب من ضروب الديمقراطيات*

إنّ البحث في العلاقة المستجدّة بين الفنّ والسياسة والاحتجاجات وتمثّلها في ضروب من الجمالية التي وجب البحث في أسسها ورسائلها تدعونا إلى الاشتغال على مفهوم ثالث الذي يُعدّ الإطار الأوسع لاحتضان كل منهما. فالتفكير في التواشج العلائقي بين الفنّ والسياسة يمرّ حتما عبر الفضاء العمومي كمفهوم حديث نسبيا، أثار قريحة الباحثين من علماء اجتماع وفلاسفة وعلماء نفس والاستطيقا وغيرهم، فهو حديث من جهة المفهمة conceptuellement ، لكنه لا أحد باستطاعته نفي وجوده الفعلي منذ ظهور الحالات الأولى لأشكال الانتظام المدني وبروز التفكير في الحياة السياسية. فالمدينة الدولة في أثينا مثلا كانت ثاوية على فضاء عمومي المتمثل آنذاك في الساحة العامة ا(لأغورا Agora) باعتبارها مكانا مشتركا وعاما لا يستثني أحدا من الحوارات في الشأن العام كتعبير على الديمقراطية السياسية. وههنا يكون تساؤلنا كيف تطوّر الفضاء العمومي في علاقة بالفنّ والسياسة؟ وهل البحث في الاحتجاج كشكل جمالي اليوم يضعنا ضمن الفضاء العمومي البرجوازي الهابرماسي أم ضمن الفضاء العمومي المعارض؟ وكيف يمكن لنا تأوّل الاحتجاجات الشبابية قبل 25 جويلية في تونس ضمن هذا المبحث الجامع للسياسة والفنّ وعلم الاجتماع؟

ثمة مسلمة يجب البدء منها، إنّ الفضاء العمومي كماهية مكانية إطارية، ينفتح على الجميع دون استثناءات أو اقصاءات مسبقة، يرتبط أساسا بالنظام سياسي بعينه، النظام الديمقراطي. ولمّا كانت الديمقراطية لا تستقر على حال، تشهد تغيرات وتحولات مفهومية وعملية سياسية، فإنّه على الفضاء العمومي تتبع هذا النسق، فلكل حقبة تاريخية ديمقراطيتها، ديمقراطية أثينا لا تشبه ديمقراطية جون جاك روسو، وعليه فإنّ الفضاء العمومي الأثيني لا يشبه الفضاء العمومي لهابرماس أو نانسي فريزر أو لأسكار نيغت. أمّا المشترك بين السياسة والاستطيقا، فقد اشتغل عليه الفيلسوف الفرنسي- جاك رنسيار منذ 2000. عودة إلى أثينا والفلسفة الأفلاطونية، يرى رنسيار أنّ الأغورا مثّلت أوّل تجسد لما يُعرف اليومي بالفضاء العمومي ويعيش الأثيني داخله شكل من الاقتسام للفضاء بين السياسي والشاعر أو الخطيب. وحسبه أنّ هذا الفضاء "فضاء مشترك(مأهول) بموهبة الخطاب العمومي[1]" فالأمر حسبه لا يتعلق بتسيس الإستطيقا ولا أستطقة السياسة. فكيف نفهم هذا المشترك؟ وماهي فاعلية الفنّ داخل هذا الفضاء؟

الفضاء العمومي والمشترك بين الاستطيقا والسياسة

استيضاحا للمشترك في المحسوس بين الاستطيقا والسياسة، سعى جاك رنسيار إلى تفكيك هذا الاقتسام والتوزيع للمكان كاتبا "يحدّد توزيع المحسوس إذن مشتركا موزّعا وأنصبة حصريّة في آن واحد."[2] ممّا يُحيل إلى إعادة رسم جغرافية الأمكنة والتوسيع في دائرة المشترك داخلها ليغدو الفضاء العمومي وجهة حيوية لمجالات متداخلة، أمّا المتلقي فهو الذي يرتشف من كل المجالات في تلقائية الفضاء المنفتح على حيثيات العبور وتفاصيله. إنّ أشكال الفنون المعاصرة في معترك الفضاء العمومي بشوارعه وجدرانه، وأزقته وحدائقه، قد لامست المشترك في المحسوس لتخوض في نوع من الالتحام الذي مزّق ستار الهوّة الفاصلة بين الفنّ والسياسة وألغى المسافات الفاصلة بين العمل الفنّي وواقعه. هذا الالتحام تجاوز للاستيطيقا المنغلقة على ذاتها داخل الفضاء الفنّي المعزول ليكون الفنّ المعاصر تأسيسا "لإستطيقا الانفتاح" التي ترنو إلى البحث عن المشترك في كل تجلياته وهو ما يمكّنها من النمو على شكل جذمور أو ريزيوم حسب عبارة جيل دولوز.

ها هنا، يكون الفنّ في الفضاء العمومي قد أعلن عن سقوط أصنام الوساطة سواء كانت ماديّة مكانيّة أو بشريّة لأنّ المتلقي يحظى بثّقة الواقع والحقيقة الجماليّة المتجسّدة على الجدار، أو في طرقات ومساحات الفضاء العمومي، أو في ممرّ دون وصاية وسائطيّة أو تقاسيم مكانيّة بعينها. إنّ الوقائع الفنيّة تتجه مباشرة إلى المتلقي دونما أيّة وسائط أو بروتكولات مزيّفة قد تشوّه القيم الفنيّة لتخلق تواشج غير مسبوق بين الوقائع الفنيّة المعاصرة وواقعها في أدّق تفاصيله، تواشج فيه التحام بين الواقع الزماني-المكاني والواقع الإستيطيقي، رفضا لكل فصل للفنّ عن واقعه أو فصل للحظة الإبداع الفنّي عن المتلقي. فالمتلقي قد يتحوّل ههنا في لحظة ما إلى عنصر- من عناصر الأثر الفنّي كما هو الحال في فنّ الحدث .

المشترك في المحسوس ونشوء الديمقراطية الاستطيقية

ثمّة مع تحقق المشترك بين الفنّي والسياسي، تحقّق لضرب من ضروب الديمقراطيات، ليست سياسية في شيء ولا

تحيلنا على أنظمة الحكم وإحراجاتها، إنّها الديمقراطيّة الإستطيقيّة وما ترنو إليه من تحقيق للعدل في تلقي الوقائع الفنيّة إسقاطا لعولبة الفنّ وبيعه للأثرياء المالكين لثمن عرض ما أو قيمة تذكرة لمعرض تشكيلي بورجوازي. فالجداريات والغرافيتي وفنون الشوارع تُسقط عن المتلقي كل أشكال التكاليف المادية النقدية لتمنحه مجانية الفنّ وديمقراطية تلقيه بعدما أصبح في متناول حيّز الإدراك البصري المشترك لجميع الناس.

فأصبحنا نعايش ديمقراطيّة فنيّة فيها الفنّ ملك للجميع يستقبلك من كل صوْب، أينّما ولّيت وجهك في الفضاء العمومي أو عدّلت بوصلة العبور في الحدائق كفنّ الأرض[3] land artوالتنصيب Perfermance. إنّها فنون"الفضاء المشترك"، والديمقراطية الاستطيقية وقد ساهمت في تعديل جغرافيّة مكانية فنية كانت حكرا على الأماكن الرسميّة من قاعات عرض ومسارح، فالوقائع الفنيّة ليست ملكا لأحد أو حكرا على أحد، فقط هي رهينة لتفاصيل العبور والمشترك المروري. ويظل الفضاء العمومي مركزا بصريا قادرا على استقطاب كل الفئات الاجتماعية والاختلافات الذوقيّة التي تجمعها الساحة الثقافيّة عموما.

إنّ فنّ الغرافيتي والكتابة على الجدران كمثال للتعابير الفنيّة الشبابية التي اخترقت الجدران العمومية في تونس لا يتطلبان من إستيطيقا التلقي غير البصر والرؤية، فهما ضربان من ضروب احتلال مرمى الإدراك البصري المشترك محوّلين بذلك الشوارع إلى ورشات إبداعية قوامها الانفتاح، فهي الورشة دون جدران، لأن الجدران لم تبقَ على هذا الاسم، بل تحوّلت إلى محامل فنيّة للديمقراطيّة الإستطيقيّة المعاصرة. إنّ الجدار لم يعد هذا العازل والفاصل بين الفضاءات، بل غدا نوافذ تُفتح على الفنّ المعمّم للوجود والديمقراطيّة الإستيطيقية فنعود بذلك إلى قول جاك رنسيار حول تشكّل المشترك بقوله"يقوم هذا التوزيع للأنصبة وللمواضع على اقتسام للفضاءات، للأزمنة ولأشكال النشاطات التي تحدّد الطريقة التي يُفتح بها المشترك مجالا للاشتراك يكون فيها لهؤلاء ولغيرهم نصيب من هذا التوزيع" [4]

وهكذا نستخلص أنّ الديمقراطيّة الفنية تؤثثها حيثيات العبور ومساواة المرور، ففي ذاك الفضاء العبوري يلتحم الفنّ المعاصر بالديمقراطية الثقافيّة لنشهد أن الفنّ في الشارع أو الفضاء العمومي تمرّد على هذا الاغتيال المنهج للحرية الإبداعية وللمباشراتيّة في الخلق والتلقي بأن أُلغيت كل وساطة بين العمل الفني وجمهوره ليكون المتلقي في حضرة العمل الفني وربّما عنصرا من عناصر العرض. فهل إيجاد مشترك بين الفنّي والسياسي يبقى في حدود الاقتسام أم قد يتحوّل الفنّ إلى حمّال لدلالات سياسية؟

الوقائع الفنيّة والاشتباك مع السياسي

كتب مارك جيمنيز في **الجمالية المعاصرة الاتجاهات والرهانات**، وفي معرض تعريفه للفنّ المعاصر ومهمته "يصلح الفنّ المعاصر للصدام والمواجهة[5]" متخليا بذلك عن كل الافتتان والاعجاب المعبّر عن "المتعة الحقيرة" على حدّ عبارة أدرنو فيها يبتعد الفنّ عن واقعه ويتواطؤ ضد الحقيقة، إنّ الفنّ اليوم ينقلب ضد هذه السياسة لينخرط في مسار مغاير، أمّا الفضاء العمومي فاعتبره أوسكار نيغت Oskar Neget تلميذ أدرنو صاحب نظرية جماليات القبح، في تصوّر أكثر حداثة، فضاء معارضا أو فضاء عموميا بروليتاريا، ضدا لفضاء هابرماس البرجوازي "من منطلق أنّ البرجوازية لم تكن وحدها من ساهم

> الديمقراطيّة الفنية تؤثثها حيثيات العبور ومساواة المرور

بشكل كبير وأساسي في نشأة الفضاء العمومي خاصة في واقع أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر [6]" هنا نلاحظ ضربا من التنشيط لمفهوم الفضاء العمومي داخل مدرسة فرانكفورت نفسها بين هابرماس والجيل الذي تلاه من الجيل الثاني والثالث، أوسكار نيغت في معرض حديثه عن الفضاء العمومي المعارض يدعو إلى ضرورة "إبداع فضاء عمومي مناسب والذي يمثل حدثا أساسيا، لأنّ لا أحد يستطيع الخروج من الدائرة المغلقة للوضعية الراهنة بالاعتماد على قواه الذاتية.[7] " فنيغت يحوّل المقاومة من المهمة الذاتية إلى الفضاء العمومي المعارض لا بوصفه مكانا للمشترك بين الفنّ والسياسة حال رنسيار وإنّما يجعله مكانا لتحسس الأزمات ومقاومة الانحرافات لأنّ "ما يعتمل داخل الفضاء العمومي البرجوازي، ليست له أيّة علاقة بأشكال المقاومة المباشرة ضد الأزمة الاجتماعية البنيوية، باعتبار أن هذا الفضاء العمومي"الرسمي" يكرر خطاب ورمزيات النظام الاقتصادي." ههنا نتساءل ما قيمة الفنّ داخل هذا الفضاء المعارض؟

الفنّ في الفضاء العمومي المعارض

دوّن عمر العلوي في كتابه **التفكير والحدود...دراسة في استيطيقا المقاومة** " تأتي المقاومة من الأسفل وتتوزّع استراتيجيّا لتعاصر السلطة وتحايثها. فليست المقاومة صورة معكوسة للسلطة، بل هي مبتكرة ومتحركة ومنتجة، كما أنّها تنتظم كالسلطة، فتتخثر وتترسخ[9]" ههنا تتولد المقاومة داخل الفنّ في حدّ ذاته، الفنّ كشكل من أشكال الفضح للفنّ الذي إختار مهمة التسكين والتكتم للفظائع التي يعيشها الإنسان المعاصر. ههنا كان لابُدّ من انبثاق براديغم فنّي يخالف سياسة الهروب ويتخذ من المواجهة، مواجهة الواقع بقبحه وفظاعته خيارا أساسيا وبالنسبة لأوسكار نيغت "تأسيس فضاء عمومي خالص هو أحد العناصر المحددة للمقاومة ولتنظيم الخيارات[10]" والفنّ قد يكون أحد مكونات هذا الفضاء المعاصر، فضاء على قدر هام من الخطورة في تعارض تام مع السلطة وخياراتها يحرك ويتحرك ويغضب ضد المرحلة

" من البديهي أنّ النقابات، تُمثّل دائما منظمات ضخمة وإطارا مهما، يستطيع هذا الفضاء العمومي المعارض أن ينمو داخلها، من خلال تمثيل فئات اجتماعية مثل الأساتذة، الطلبة وآخرين[11]."

إنّ فيلسوف جماليات القبح، أدرنو قد دوّن في نظرية استطيقية "إنّ لا إنسانية الفنّ ينبغي أنّ تزايد على لا إنسانية العالم، وذلك بإسم ماهو إنساني."[12] فكيف انبنت هذه الاستراتيجيات للمقاومة داخل الفضاء العمومي في الاحتجاجات؟

الفضاء العمومي وتمازج الجمالي بالاحتجاجي

هذه النظريات الإستطيقية المعاصرة، ليست في معزل عن واقع الفنون المعاصرة وليست كما يتصوّرها البعض غربية لا تلتقي مع واقعنا اليوم، بل أثبت الفضاء العمومي العربي أنّ للتعبيرات الشبابية خاصة الاحتجاجية منها دلالتها القويّة كشكل من أشكال المقاومة في معناها السياسي مثلما قد تمثّلها ميشال فوكو، وحسبه أنه ثمّة علاقة محايثة بين المقاومة والسلطة أي أنّ المقاومة لا تكون إلا معاصرة للسلطة بمعنى نفي كل ضروب القبلية والبعدية. فالمقاومة والسلطة لا يصيران إلا على خط من التوازي لذلك يكتب ميشال فوكو" *ليست ثمّة من أسبقية منطقية أو كرونولوجية للمقاومة*[13]" والفنّ في هذه الوضعية الحرجة لامناص له إلا اختراع طرق لمقاومة واقعه السياسي المتردي والتعبير عن مواقف صارمة من حالات الارباك والتذبذب في آليات الحكم، ففي تونس كان الفضاء العمومي محمّلا بالرسائل الاحتجاجية قبل الثورة وبعدها لتتجمّل الفضاءات العمومية بمطالب سياسية وشعارات للمظاهرات الاحتجاجية الشعبية في كل الشوارع الرئيسية للمدن والولايات.

غير أنّه وفي خضم الحراك الاجتماعي بعد الثورة عامّة وفي 2021 خاصة، بدأ الفضاء العمومي يمثّل ثقلا خانقا للحكومات التي حاولت مصادرة حق التظاهر بتعلّات واهية منها انتشار الكوفيد والموجات الوبائية المتلاحقة، ونحن نعلم أنّ السياسي يريد بسط نفوذه على الفضاء العمومي محوا لكل مشترك بينه وبين الجمالي خاصة أنّ الاحتجاجات جعلت من فنون الفضاء العمومي من خطابة وشعر وغرافيتي وفنّ أداء ومشهديات وخاصة الفوتوغرافيا التي أتقنت خلق فضاء إلكتروني عمومي مشترك منخرطة في عمق حفظ اللحظات الواخزة للإنسانية العنف. فثمة بنكتوم قوي في الفوتوغرافيا على حدّ عبارة رولان بارط في كتابه **الغرفة المظلمة** حيث يكتب حول هذا المفهوم الفوتوغرافي"*توجد الكلمة في اللاتينية لكي تشير إلى هذا الجرح، هذه الوخزة، هذه العلامة التي أحدثتها آلة مدببة...*[14]" وفنون الفضاء العمومي حفظت هذه الوخزة في حاضر المحتجين وذاكرتهم. فلا شيء يحفظه الفنّ المعاصر في الفضاء العمومي يستطيع تزييفه.

ههنا يتشابك الكل في شيء من شدّ العضد حتى بات من الاستحالة الفصل بين الشعارات المطلبية والرسائل الفنيّة لتتكثّف عندنا قناعة أن الاحتجاج فن والفنّ المعاصر ينسلخ عن ماهيته إذ لم يكن احتجاجا وصداما ومواجهة، هكذا لا يكون الإبداع إلا ثوريا والإبداع الحقيقي يتفجّر من الغضب والعصيان وهذا ما تعلمناه من نيتشه القائل على لسان زرادشت" لا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه... أكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح" والشباب المحتج في تلك الآونة وثّق الكتابة بالدّم في معناها الإبداعي لكن بطريقة جمالية كانت غائبة في ما قبل ذلك، إنّها احتجاجات شبابية ماراطونية في جانفي

> *تتكثّف عندنا قناعة أن الاحتجاج فن والفنّ المعاصر ينسلخ عن ماهيته إذ لم يكن احتجاجا وصداما ومواجهة*

وفيفري 2021 جسّدت ماهية المقاومة بالفنّ بعد قرار غلق شارع لحبيب بورقيبة أمام المتظاهرين تشتيتا لأصواتهم وتمييعا لمطالبهم.

كانت البداية بأن غزت الألوان الشوارع والأمكنة في مسيرة أواخر شهر جانفي" مقاومة مقاومة، لا صلح ولا مساومة" رافقتها سكب لألوان متباينة من أنواع الطلاء مؤكدين أن الاحتجاج عليه أن يكون واقعة فنية جمالية، لأنّ الاحتجاج بالنسبة لهؤلاء الشباب إمكانية من إمكانات الفرح يرافق استطاعتهم ولو يوما واحد استعادة حقهم في التعبير عن رفضهم لتراجع منسوب الديمقراطية في وطن كان رهان ثورته "شغل حرية كرامة وطنية".

لقد تمّ تأكيد ضرب من استطيقا المقاومة والاحتجاج حيث أنّ لحادثة الألوان في شارع لحبيب بورقيبة نقلة نوعية في أشكال الاحتجاج لتتحوّل المظاهرة في حدّ ذاتها إلى واقعة فنيّة تتلوّن فيها الأجساد والملابس والأرضية وحتى النصب التذكارية والجدران لم تسلم من ذلك. رُبّ تعميم جمالي كأنّ الألوان تحدث لها نظرية فيض أيضا فتصبغ كل المحيط بها وخاصة الذين يمارسون القمع، أليست الألوان في مثل هذه المناسبة قد جعلت من الاحتجاج محملا تطرز فوقه لوحتها التشكيلية المتدفقة رفضا للجمالية الجامدة؟ أو أنّ الاحتجاجات صارت مناسبة للابداع الفنّي؟

هكذا كانت بداية الالتحام بين الوقائع الفنية وأشكال الاحتجاجات والملفت في هذه المسيرات أنّه ثمّة تسلّح بالأقنعة الفنية والأزياء المسرحية، تجد مهرجا ما عاد قادرا على الاضحاك بل أصبحت مهمته الهتاف والإدلاء باستحالة الضحك في ظل حكومات تصادر حقّك في التعبير ، غير أنّه يجب هنا الإشارة إلى أنّ الإكسسوارات الفنية سواء كانت شعرا مستعارا أو أقنعة أو ملابس قد ساهمت في مرحلة الاشتباك أو الاختلاق أو المواجهة مع السلطة في التضليل فوحده الفنّ يمتلك اقتدار الهروب من المراقبة الصارمة لأنّه كما يكتب عمر العلوي " *ثمّة معركة أساسية ستدور رحاها بين أشكال المراقبة والمحاولات المتعددة للإفلات، أي بين بنية صارمة وفعل مقاوم، أو بين سلطة القولبة ولاشكلية المادة*[15]" وكأنّما الشباب المحتج قد تيقّن بوجوب اختراع مشهدية احتجاجية مغايرة تمثله وتوصل للسلطة القمعية أنّنا إزاء جيل جديد لا ترهبه الأساليب التقليدية المهترئة وله من قدرة اختراع حرية رمزية يفترعها من الفنّ ولوقائع الفنية.

خاتمة

لا تُعد الوقائع الفنيّة المعاصرة في منأى عن واقع شديد الخفقان لا يستقر على حال، بل حاولت اختراق الفضاء العمومي لتنخرط بكل ثقلها الجمالي والدلالي في عمق معترك قائم على المقاومة في مستويات عدّة، منها مقاومة مأسسة وتبضيع الفنّ حتى لا يغدو مجرد سلعة تتقاذفها الأسواق الرأسمالية ومحاربة كل أشكال استغلاله كأفيون لطمس الحقائق. ههنا ينبعث الفنّ ليلتحم بالقضايا السياسية والأشكال الاحتجاجية مؤسسا لفنّ يصلح للمقاومة والتمرد ويفتح إمكانيات عميقة على أن يحدث تمازج يستحيل معه الفصل بين الوقائع الفنية والاحتجاجات خاصة منها الشبابية لتُدشن استطيقا الاحتجاج والمقاومة.

الهوامش

1.رنسيار، **الاشتراك في المحسوس، الاستيطيقا والسياسة**، مصدر مذكور سابقا، ص483.
2.المصدر نفسه، ص482.
3. حركة فنيّة ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية الستينات من القرن العشرين، قامت على تصوير المناظر الطبيعية وابتعدت عن المدن. واعتبرت أنّ العمل الفنّي غير قابل للاقتناء والتسويق.
4.رنسيار، **الاشتراك في المحسوس، الاستيطيقا والسياسة**، مصدر مذكور سابقا، ص482.
5. مارك جيمنيز، **الجمالية المعاصرة الاتجاهات والرهانات**، ترجمة كمال بومنير، بيروت، الرباط، الجزائر، منشورات ضفاف، دار الأمان،منشوراتالاختلاف،الطبعة الأولى،2012، ص103.
6.رشيد العلوي، **"الفضاء العمومي المعارض: نقد أطروحة هابرماس"**، مؤمنون بلا حدود،2016.
7.أوسكار نيغت، **الفضاء العمومي المعارض اليوم**، ترجمة محمد العربي العياري، مجلة حكمة،17/05/2022.
8.المصدر نفسه.
9. عمر العلوي، **التفكير والحدود...دراسة في استيطيقا المقاومة**، المصدر مذكور سابقا، ص291.
10.أوسار نيغت، الفضاء العمومي المعارض اليوم، مذكور سابقا
11.المصدر نفسه.
12.أدرنو، **نظرية استطيقية**، ترجمة ناجي العونلي، بيروت، دار الجمل،2017، ص178.
13. عمر العلوي، **التفكير والحدود...دراسة في استيطيقا المقاومة**، مصدر مذكور سابقا، ص294.
14.رولان بارت، **الغرفة المضيئة، (تأملات في الفوتوغرافيا)**، ترجمة هالة نمّر، بيروت، المركز القومي للترجمة، 2010 ص29.
15. عمر العلوي، **التفكير والحدود...دراسة في استيطيقا المقاومة**، مصدر مذكور سابقا،، ص296.

لا تُعد الوقائع الفنيّة المعاصرة في منأى عن واقع شديد الخفقان لا يستقر على حال

تجارب البناء السيادي في الوطن العربي في فترة ما بعد الاستقلال: نماذج مصر والعراق والجزائر

بقلم: **خليل القادري**

ناشط سياسي وطالب دكتوراه في اختصاص القانون الخاص

khalilkadri1990@gmail.com

> *تلك التجارب استفادت من زخم التضامن الشعبي العربي ومن تجارب حركات التحرر الوطني في العالم مع ربطه بطموح وحدوي*

لم يكن مصطلح السيادة كمطلبية سياسية بمعزل عن حركية الشعوب العربية الساعية لنيل الاستقلال التي ظلت أقطارها ترضخ تحت نير التبعية والاستعمار مدة قرون والتي عرفت الاستعمار بشكله الحديث منذ القرن التاسع عشر مع بروز الظاهرة الاستعمارية بمفهومها الحديث اختلفت مسمياته بين وصف "استعمار غير مباشر وغير مباشر" عبر أنظمة بالوكالة

في بداية تركيز الاستعمار بالوطن العربي، جابه مقاومة شعبية منظمة قادتها زعامات تقليدية لكنها فشلت في تحقيق أهدافها لعامل تفاوت موازين القوى بينها وبين القوى الاستعمارية، فتشكلت لاحقا حركات وطنية متمثلة في أحزاب أخذت على عاتقها خوض النضال السياسي الشعبي من أجل نيل الاستقلال، برزت فترة ما بين الحربين العالميتين ثم استفادت من زخم ثورات التحرر الوطني وما أتاحه ميثاق الأمم المتحدة من حق البلدان في تقرير مصيرها، فخاضت غمار الكفاح المسلح المنظم فتمكنت من نيل استقلالها والاعتراف الدولي بها في المنابر الأممية كأمم حرة مستقلة. ظل تقييم سيادتها محل اختلافات وتجاذبات بين الأنظمة الحاكمة بعد الاستقلال وبين معارضيها، كما ارتبطت سبل تحقيق البناء السيادي في الوطن العربي باختلاف صيغ تحقيقه على مستوى البناء بنظريات مختلفة.

برز مناخ دولي تميّز بصراع القطبين وانبثاق معسكر عدم الانحياز، كما تبلورت التيارات الداعية للوحدة العربية والتحرر المستميلة لقطاع واسع من النخب والطلبة والمدغدغة حتى لتطلعات النخب العسكرية التي بدورها دفعت لإزالة الأنظمة القائمة عبر انقلابات عسكرية أطاحت بها كما الحال لتجربة مصر والعراق او عبر تجسيدها للشرعية الثورية المنبثقة من حرب التحرير الشعبية، كما جسدتها الجزائر. قررت تلك الحركات المذكورة العمل على تأسيس بناء سيادي حدد ببرامج معدة سلفا، تجد أساسها في روافد وفلسفات مختلفة وإن تشابهت في سياستها وخطابها وجمعها حتى لتنسيق مشترك وأحيانا كانت تتنافس حول الريادة في المنطقة.

على ضوء هذه العوامل والاحداث تشكلت في القرن العشرين اهم ثلاث تجارب بناء سيادي في الوطن العربي التجربة المصرية (1952 -1970) والتجربة الجزائرية (1962-1978) والتجربة العراقية على مرحلتين (1958 – 1963 ثمّ2003 1968). لكن تظل أهمها والأكثر تأثيرا وزخما التجربة المصرية مع حكم الرئيس جمال عبد الناصر والتي تلت وصول تنظيم الضباط الأحرار لسدة الحكم في مصر والإطاحة بالنظام الملكي الذي كان يسبح في فلك التبعية البريطانية والتي اثرت بشكل مباشر وغير مباشر على نشأة البناء السيادي في القطر العراقي والقطر الجزائري.

الجزء الأول: مظاهر البناء السيادي في الوطن العربي في التجارب الثلاث

لم يكن الوطن العربي بمعزل عن تلك الحركات الاستقلالية في العالم الثالث، لئن تنوعت صيغ الكفاح الوطني وطرق نيل الاستقلال وتجارب البناء بين مختلف الأقطار العربية المتحصلة على استقلالها حديثا، فإن بعض تجارب الأقطار العربية السيادية تميزت بسلك طريق خاص في البناء السيادي مختلفة من حيث طبيعتها واليات عملها عن بقية الحركات، إذ طرحت عناوين كبرى ربطت التحرر الوطني بالتحرر الاقتصادي والثقافي وأسست لمفهوم الحياد الإيجابي إزاء الصراع بين القوى المؤثرة دوليا، لاسيما صراع القطبيتين في الحرب الباردة مقترحة صيغة بديلة لذلك الصراع تدفع للسلام العالمي ودعم حركات التحرر.

إن التجارب الاخذة بالنزعة القومية العربية كنزعة مناهضة للاستعمار كانت التجارب الأبرز التي حاولت ترسيخ بناء سيادي متمثل في تركيز القرار الوطني المستقل وتأميم الثروات والعمل على بناء الشخصية الوطنية والقومية بناء استقلاليا كاملا.

تلك التجارب استفادت من زخم التضامن الشعبي العربي ومن تجارب حركات التحرر الوطني في العالم مع ربطه بطموح وحدوي مثّل أكبر هدف للرد على الاستعمار، لاسيما مع بقاء أقطار عربية تحت نير الاستعمار وأضيفت إليها نكبة فلسطين.

أ- التجربة المصريّة

عرفت مصر اضطرابات سياسية أوائل سنة 1952 سببها النقمة الشعبية على تخاذل النظام الملكي المصري في الاستجابة لمطالب الأحزاب الوطنية بتفعيل جلاء الاستعمار البريطاني مع استمرار الوضع البائس للطبقات الشعبية المصرية نتيجة هيمنة الاقطاعيين المقربين من القصر، وأيضا السخط الشعبي العارم نتيجة هزيمة الجيش المصري في حرب 1948 بفلسطين.

لعبت هذه العوامل في التمهيد لقيام تنظيم سري عسكري صلب الجيش سمي باسم "الضباط الأحرار" اختلفت روافدهم الإيديولوجية، لكنهم قرروا بالإجماع إنهاء

النظام الملكي وانهاء العمل بدستور وحل الأحزاب، و كان لهم ذلك إثر 23 يوليو 1952 والتي أصبحت تسمى "بثورة الضباط الاحرار"، لكن سرعان ما دبت بينهم خلافات حسمت لصالح جمال عبد الناصر الذي قام بصياغة برنامج الثورة من خلال "فلسفة الثورة "و سن دستور جديد في [1].1956

انطلق في تفعيل تلك المبادئ المتمثلة القضاء على الإقطاع والاستعمار، إقامة جيش وطني قوي، إبرام "اتفاقية الجلاء البريطاني عن مصر" 1954" وإصدار قانون الاصلاح الزراعي وتأميم قناة السويس في 1956 وقد دفع ضريبة تلك الخطوة بتعرض بلده للعدوان الثلاثي من طرف بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني الذي جابه مقاومة شعبية وعسكرية.

اكتسب بذلك عبد الناصر شعبية كبيرة أهلته للعب دور محوري في الامة العربية من خلال دعمه لحركات التحرر العربية في المغرب العربي، لا سيما دعمه للثورات المسلحة في تونس والمغرب وبالخصوص الثورة الجزائرية كما لعب دورا حاسما في تحرير جنوب اليمن في 1967 من الاحتلال البريطاني.

ميز تجربة عبد الناصر اتخاذ خطابه شكل قوميا عربيا وحدويا يربط التحرر القومي بالمضمون الاجتماعي واهله ذلك الدور الى لعب دور أكبر على مستوى الساحة الدولية من خلال دفعه بتأسيس حركة عدم الانحياز إثر مؤتمر باندونغ في 1955 والعمل على دعم حركات التحرر في إفريقيا والعالم الثالث كما ربط خطابه التحرير والتوحيد العربي بقضية فلسطين وإنهاء تبعية الشعوب العربية للأحلاف الاستعمارية. كما عمل عبد الناصر على تأسيس مشروع السد العالي وتركيز صناعات ثقيلة. أما السيادة الثقافية، فقد تميزت بطبع الحياة الثقافية والتعليمية بطابع عربي وإسلامي خاصة من خلال تطوير مؤسسة الأزهر والعناية بالثقافة العربية الإسلامية. [2] كما تمت رعاية

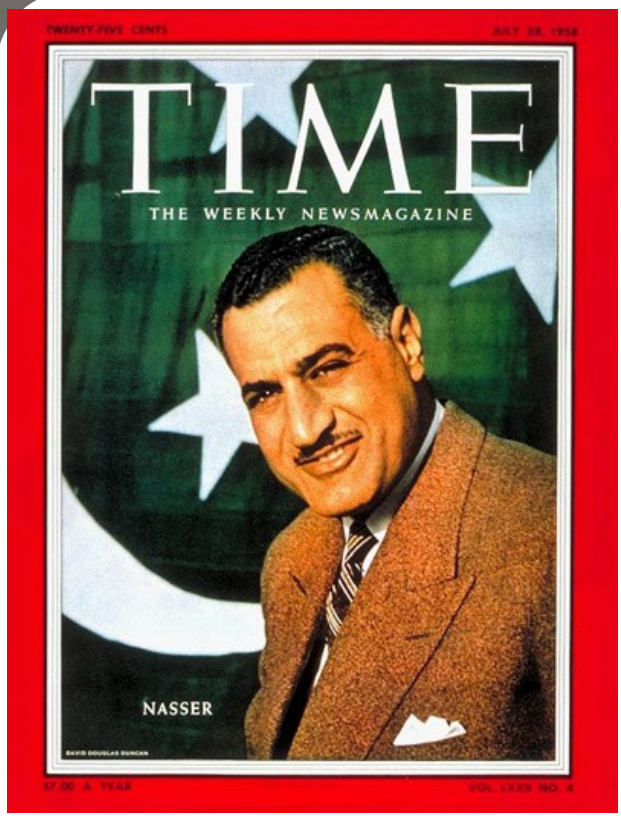

المتاحف وإبراز الشخصية الوطنية المصرية عبر السينما.

تلك الإنجازات السيادية سرعان ما انهارت بهزيمة الخامس من جوان 1967، التي جعلت حدة سقف خطابه الوحدوي التحرري يتراجع ويدفعه للتفرغ لرمرمة الوضع الداخلي المصري ولملمة جراح الهزيمة، فخاض حرب الاستنزاف مع الكيان الصهيوني التي دامت عامين وشكلت صمودا نسبيا لكن انتهت بالموافقة على مبادرة وزير الخارجية الأمريكي وليام روجرز وقف إطلاق النار.

ما يمكن استخلاصه هو أن عبد الناصر شكل نقلة نوعية في البناء السيادي العربي الحديث من خلال منح مصر دورا قياديا مؤثرا في عملية الصراع في الشرق الأوسط وحتى في العالم الثالث كمساهمتها في دعم حركات التحرر في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

ب التجربة الجزائرية

تختلف صيغة البناء السيادي في الجزائر عن التجربة المصرية والعراقية لأنها جاءت إثر ثورة شعبية مسلحة أطّرها جيش التحرير وجبهة التحرير.

كانت الحكومة المؤقتة هي من تشرف على مسار المفاوضات مع الاحتلال الفرنسي الذي أفرز على وقف إطلاق النار من الجانبين وبدء بمفاوضات إيفيان التي تم من خلال منح حق تقرير المصير بموجب استفتاء شعبي تم التصويت لصالح خيار "جزائر حرة مستقلة متعاونة مع فرنسا" في جويلية 1962، بالرغم الشروط المجحفة التي وافق عليها الفريق المفاوض التي كانت محل خلاف بين الحكومة المؤقتة وهيئة أركان جيش التحرير الوطني بقيادة هواري بومدين وحليفه أحمد بن بلة الذي تسلم زمام السلطة بعد الاستقلال. لم يمنع ذلك من العمل على التأسيس لبناء سيادي يجد روافده في بيان نوفمبر 1954 ومؤتمر طرابلس 1962 إلى جانب روافد خارجية كالبناء السيادي الناصري والبناء السيادي

> *تختلف صيغة البناء السيادي في الجزائر عن التجربة المصرية والعراقية لأنها جاءت إثر ثورة شعبية مسلحة أطّرها جيش التحرير وجبهة التحرير*

في التجارب الاشتراكية لا سيما التجربة الصينية والتجربة اليوغسلافية. تم الجلاء الزراعي واجلاء "الأقدام السود" من الفرنسيين والتأسيس لتجربة التسيير الذاتي، فقد أكد دستور الجزائر الصادر في 1963 في مادته العاشرة أن الأهداف الأساسية للجمهورية الجزائرية تتمثل في "صيانة الاستقلال الوطني وسلامة الأراضي الوطنية وتشييد الديمقراطية الاشتراكية وتصفية بقايا الاستعمار ".

اما في السياسة الخارجية فقد عمل نظام احمد بن بلة على توطيد علاقته بالأنظمة القومية العربية لا سيما نظام جمال عبد الناصر، كما وفر الدعم للحركات المعارضة المغاربية التي يحوي جلّها المقاومين للاستعمار والمتعاطفين مع الثورة الجزائرية والمرتبطين بتحالفات مع قوى ثورية مناهضة للاستعمار، فتحولت الجزائر بذلك الى معقل مساند لكل حركات التحرر حتى أن الثائر الغيني اميرال كبرال لقّبها "بمكة الثوار"[3]. أما على المستوى الثقافي، فقد وضع بن بلّة أسس برنامج التعريب وفق ما تشير إليه خطاباته ودستور 1963.

لم تستمر تجربة بن بلة في الحكم طويلا، إذ أطاح به انقلاب قاده وزير دفاعه هواري بومدين في جوان 1965. حققت تجربة بومدين بعض المكاسب السيادية، من ذلك استرجاع قاعدة المرسى الكبير العسكرية في وهران من الفرنسيين في 1967 والقواعد الجوية في عنابة وبشار. كما هدف بومدين على العمل على ترسيخ سياسة البناء الاشتراكي عبر إصدار قانون الاصلاح الزراعي وبعث مشاريع للصناعات الثقيلة، لكن أهم مكسب سيادي طبعت به تجربته كان التأميم النصفي للمحروقات في فيفري 1971، كما استمر في بناء المؤسسات وعصرنتها وتحقيق مكاسب للطبقات الشعبية. ولم تكن سياسة السيادة الثقافية ببعيدة عنه، فقد نضج مشروع التعريب في عهده، أما في السياسة الخارجية فاستمر على نفس سياسة سلفه في دعم حركات التحرر لا سيما القضية الفلسطينية ومشاركته في مختلف الحروب التي خاضتها الجيوش العربية ضد الكيان الصهيوني.

ج- التجربة العراقية

تتشابه التجربة العراقية من حيث البناء السيادي مع التجربة المصرية لكن لها مسارها الخاص، فقد جاءت إثر انقلاب دموي من طرف الجيش باركته أحزاب متعددة شكلت فيما مضى الجبهة الوطنية العراقية وباركت الإطاحة بالنظام الملكي، لكن هذه الحكومات لم تعرف الاستقرار.

في البداية مسك زمام الحكم عبد الكريم قاسم في تموز 1958 واستمر حكمه خمس سنوات. ما يحسب لتجربة عبد الكريم قاسم أنه اتخذ إجراءات سيادية تتعلق أساسا بإخراج العراق من حلف بغداد الاستعماري ورفع الوصاية البريطانية على القرار السياسي العراق ويحسب به تأميم النفط القانون رقم 80 الصادر في 12 كانون الاول 1961 قد مكن العراق من استرجاع 99.5% من مجموع مساحات امتيازات شركات نفط العراق والموصل والبصرة وقانون الإصلاح الزراعي رقم 30 لسنة 1958.

لم تستمر تجربة قاسم بفعل الانقلاب العسكري الذي نفذه البعثيون المتحالفين مع الضابط المستقل عبد السلام عارف في شباط 1963 الذي استغل الخلافات المتفجرة بأجنحة حزب البعث لينتهز الفرصة ويستولي على الحكم في تشرين1963 ليحكم مدة ثلاث سنوات ليخلفه شقيقه عبد الرحمان عارف المنقلب عليه لاحقا في تموز 1968 من طرف عسكر حزب البعث حاكمين لفترة دامت أكثر من ثلاث عقود.

حققت تجربة البعث الثانية في الحكم مكاسب سيادية لعل أهمها تأميم النفط في يونيو 1972 بعد مفاوضات عسيرة قادها فريق حكومي مفاوض مع الشركات الأجنبية كما أصدر قانون الاصلاح الزراعي رقم (117) لسنة 1970 حاول تركيز خدمات مرفقية عامة متطورة في مجال الصحة وتركيز صناعات وطنية كما شمل البناء السيادي النهوض بالتعليم عبر حملات محو الامية وتطوير جودة التعليم.

كان القرار الوطني العراقي مستقلا عن كل التجاذبات الإقليمية الدولية الكبرى وإن كان هناك تقارب مع الاتحاد السوفياتي أو فرنسا، إلا أنه ركّز الحياد الإيجابي وقيم مؤتمر عدم الانحياز خاصة خلال فترة أحمد حسن البكر كما دعم النظام العراقي حركة التحرير الفلسطيني ومول مختلف فصائلها بالمال والسلاح والتدريب العسكري.

الجزء الثاني: حدود تجارب البناء السيادي في الوطن العربي

رغم المكاسب التي حققتها تلك التجارب السيادية على مستوى تحرير القرار السياسي ولعب دور حيوي في المنطقة مؤثرا في توازنات الصراع في الشرق الأوسط إلا ان هناك عوامل مشتركة في تلك التجارب أدت الى تلاشيها وفقدان زخمها بالرغم من تغنيها بالسيادة الشعبية، فالمشترك بينها غياب الديمقراطية وهيمنة حكم الحزب الواحد والحكم الفردي وسطوة الأجهزة الأمنية والعسكرية و الحروب المغامراتية غير المدروسة وغياب التنظيمات الصلبة التي يمكن أن تجسد حالة استمرارية للمكاسب التي حققتها.

أ- التجربة المصرية

بعد وفاة عبد الناصر، خلفه نائبه أنور السادات الذي بمجرد تمكنه من الهيمنة على الحكم اتجه في خيارات سياسية مغايرة لسلفه اقتربت من المحور الرأسمالي. واستثمر حرب تشرين التي حققت انتصار معنوي دون انتصار استراتيجي، ليفاجئ العرب بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد " السلمية مع الكيان

> *"كان القرار الوطني العراقي مستقلا عن كل التجاذبات الإقليمية الدولية الكبرى وإن كان هناك تقارب مع الاتحاد السوفياتي أو فرنسا"*

الصهيوني سنة 1978، فمكنته من استرجاع شبه جزيرة سيناء لكن مع بقائها منزوعة السلاح، كما اتجهت سياسته نحو خصخصة القطاع العمومي وقل دعمه لحركة التحرر ونسج على منواله من خلفه في الحكم.

ب- التجربة العراقية

في الحالة العراقية استنزفت الدولة في حروب جانبية من ذلك الحرب الإيرانية العراقية، تلتها الخطوة المفاجئة في غزو الكويت في 1990 التي كلفت العراق تدخل تحالف عربي غربي عسكري بقيادة الولايات المتحدة الامريكية، تم على إثرها انتهاك سيادة العراق وفرض حصار جائر أثّر سلبا على الاقتصاد العراقي لمدة اكثر من عقد، و انتهى بحرب عدوانية في مارس 2003 قادتها الولايات المتحدة العازمة على اجتثاث النظام الذي لم تكن موازين القوى لصالحه، علاوة على كونه لم يحصن جبهته الداخلية بسبب سياسته الاستبدادية. لتنتهي تلك التجربة ويتحول العراق إلى بلد منتهك السيادة قائم على ديمقراطية شكلانية تعتمد محاصصة الطوائف، يعم فيه الفوضى ومنطق اللادولة، يسيطر عليها الولاء المذهبي على حساب الولاء الوطني وتعصف بها الحروب الاهلية وسيطرة المليشيات الخارجة على القانون[4]، فظلت معاناته مستمرة إلى اليوم.

ج- التجربة الجزائرية

مرت الجزائر بفترة حكم الحزب الواحد ولعب الجيش الدور الأبرز في إدارة الشأن السياسي رغم تحقق المكاسب السيادية إلا أن حدود تلك التجربة تمثلت في استمرار التجارب الكيميائية الفرنسية في الصحراء الجزائرية إلى حدود أواخر السبعينات، وقد كانت فيما مضى سرية، لكن تم إنهاؤها بمجرد رفض الرئيس الشاذلي بن جديد الترخيص للفرنسيين في استمرارها، بعد أن تم إيقاف التجارب النووية في 1966 [5].

تراجعت المكاسب التي تحققت في فترة الستينات والسبعينات بعد وفاة الرئيس هواري بومدين. كما لعب تأثير لوبي فرنسا المتصاعد عبر النخبة الثقافية والعسكرية ذات التكوين الفرنكفوني والمتعاظم نفوذها، التي أضحت تدير البلد من خلف الستار منتهزة صعودها التدريجي للمراكز الحساسة في الدولة، وحسمها الصراع الخفي مع بقية الاجنحة صلب مؤسسة الحكم [6] متسببة في أزمة اقتصادية واجتماعية حادة أواخر الثمانينات، أدت الى اندلاع حركات احتجاجية شعبية في أكتوبر 1988 المطالبة بإصلاحات سياسية واقتصادية وانفتاح ديمقراطي، تجاوبت معه السلطة من خلال سن دستور جديد كانت ضريبته باهظة، ففي أول اختبار لمشروع الانتقال الديمقراطي الوليد أفتتح المسار الانتخابي، فبرزت تيارات معارضة راديكالية تنوعت بين توجهات إسلامية راديكالية او توجهات قائمة على العصبية اللغوية على غرار التيار الإسلامي والتيار البربريستي حيث ربح التيار الأول الانتخابات التي تم إيقافها من طرف الجيش حرصا منه على حماية مكاسب الجمهورية ودولة الاستقلال. في المقابل تعاظم نفوذ التيار الثاني الذي توزعت تنظيماته بين التحالف مع السلطة ومعارضتها وأصبحت له سطوة داخل بعض المناطق التي لها خصوصية لغوية مما مهد لاحقا الى نعرات انفصالية قد تهدد مكاسب دولة ما بعد الاستقلال والوحدة الوطنية، إضافة الى ارتباطاتها الخارجية. أما التيار الإسلامي الذي تنوعت تنظيماته فقد كان خطابه يتنكر لمنجزات دولة ما بعد الاستقلال ويهدد مكاسب النظام الجمهوري، مما أدى الى تصادم بين تنظيماته المسلحة مع الدولة وتسبب في احتراب السلم الأهلي فخلف عدد كبيرا من الضحايا واستمر لمدة عقد من الزمن انتهى بمصالحة وطنية أعادت الأمن والاستقرار للجزائر.

خاتمة

لئن حققت هذه التجارب مكاسب سيادية عملت على بلورة مشروع سيادي يشع إقليميا وعالميا، إلا أن غياب الديمقراطية والتخطيط والاستشراف الاستراتيجي الجيد واعتماد النمط المركزي التسلطي في الإدارة كما غياب استمرارية الخط السيادي صلبها، عرضها إما لانقلاب داخلي مثلما حدث في مصر والجزائر وكاد يؤدي بها الى حروب أهلية أو إلى التلاشي بموجب العدوان الخارجي كما حالة العراق.

الهوامش

1. دستور مصر 1956 أستفتي عليه في 25 يونيو 1956
2. عبد الحليم قنديل، **الناصرية والإسلام**، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، 1998
3. فاضل الربيعي، **العسل والدم من عنف الدولة الى دولة العنف**، الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، 2008.
4. رابح لونيسي : "الشاذلي أوقف التجارب الكيميائية الفرنسية" منشور بجريدة **الوسط الجزائرية** في 15 سبتمبر 2020.
5. عبد الحميد البراهيمي، في اصل الازمة الجزائرية(1958 -1999)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001.

غياب الديمقراطية والتخطيط والاستشراف الاستراتيجي الجيد واعتماد النمط المركزي التسلطي في الإدارة كما غياب استمرارية الخط السيادي صلبها عرّضها إمّا لانقلاب... أو التلاشي بموجب عدوان خارجي

البذور المهجنة والسيادة الوطنية

بقلم: **إسكندر بن عمر**
باحث في علم الاجتماع

> *اندثر خلال القرن الماضي 75% من التنوع الجيني في العالم*

تعد السيادة الوطنية قيمة تضمن استقلال الدول، ومطلق حريتها في ادارة مجالها واختيار نموذجها التنموي ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا، فتصون بذلك حرية المجتمعات وتؤسس لشروط ازدهارها وتقدمها. إلا أن هذه القيمة تبقى مهددة على الدوام سواء عبر تدخل الدول الأقوى فيها أو عبر سياسات تهددها ضمنيا. من جملة هذه السياسات المهددة نجد برنامج الإصلاح الهيكلي الذي تمت ترجمته عبر جملة من البرامج اهمها برنامج الاصلاح الهيكلي الزراعي.

لذلك نهتم في هذا المقال برصد بعض المخاطر التي تتهدد السيادة الوطنية من خلال تقنين[1] اعتماد البذور والمشاتل المهجنة في القطاع الفلاحي على حساب البذور والمشاتل المحلية.

فما الذي نقصده بالسيادة الوطنية؟ وما هو واقع تغلغل البذور والمشاتل المهجنة في الواقع الفلاحي التونسي؟ وإلى اي مدى يمكن الحديث عن بديل مجتمعي؟

في مفهوم السيادة الوطنية

إن المتأمل للواقع التونسي على مختلف مستوياته الرسمية يلاحظ تناقضا بين المعلن رسميا من اعتبار لمفهوم السيادة الوطنية كمحدد للسياسات بشكل عام وبين الممارس عمليا في رسم السياسات وعلى رأسها السياسات الفلاحية. ومما ينجر عن ذلك أننا نجد أنفسنا أمام تناقض أعمق وأشمل بين جهة أولى تنتج ولا تستفيد من إنتاجها، بل أنها كذلك تستنزف مواردها الطبيعية والبشرية اضافة إلى الاقتصادية منها وبين جهة ثانية تتحكم في إنتاج الجهة الاولى وتستفيد منه دونها مما يمكنها من حفظ مواردها واستثمارها على الوجه الامثل.

نقصد بالسيادة الوطنية »أن تمتلك الدولة السلطة العليا والهيمنة المطلقة والحكم الكامل على/وفي أرضها ورعاياها ومؤسساتها وخياراتها ومواقفها، وأن تكون مستقلة عن أي سلطان آخر سواء كان داخليا أو خارجيا، وان تكون لها الكلمة العليا والوحيدة في جميع ما تقوم به من أعمال، وأن لا تعلو عليها أية سلطة أو أي هيكل أو كيان اخر. السيادة هي كذلك ووجوبا أن تكون السلطة نابعة من الشعب« [2].

تشتمل السيادة على سبع خصائص يجمع عليها أغلب الباحثين في العلوم السياسية وهي[3]:

ا/ دستورية وقانونية ويعني ذلك أن يتم الإعلان عنها في الدستور كمبدأ عام وان يتم تفصيلها في قوانين.

ب/ سامية وشاملة اي أنها لا تستثني أحدا أو مجموعة أو طائفة من السكان والمقيمين من غير رعاياها وهي تستوجب الطاعة واحترام القوانين من الجميع.

ج/ مطلقة وعامة بمعنى أن لا سلطة ولا هيئة أعلى منها داخليا وخارجيا. ومن هذه الصفة تتفرع السيادات الاخرى.

د/ دائمة ومستمرة أي انها تدوم بدوام الدولة وتزول بزوالها. وبهذا المعنى فالدولة شرط إمكان السيادة.

ه/ غير قابلة للتصرف والاجتهاد بمعنى أنها وحدة صماء غير قابلة للتقسيم أو التجزيء أو التنسيب وذلك يعني أنه لا توجد في الدولة الواحدة المستقلة سوى سيادة واحدة متعددة الاشكال فالسيادة الوطنية يمكن أن تتخذ اشكالا مختلفة كالسيادة الغذائية والسيادة على الثروات والسيادة على القرار الوطني...

و/ مهيكلة ومراقبة إذ أنها تخضع لضوابط وحدود يفرضها القانون ويسهر على احترامها ممثل الشعب تشريعا وتنفيذا وقضاء.

ز/ لا تتناقض مع استقلاليتها وحيادها أي أنها غير قابلة للتلاعب بها داخليا أو خارجيا ولا يمكن اعتمادها في أغراض خاصة أو فئوية.

يمكن تصنيف أركان السيادة إلى صنفين :

الصنف الاول: أركان إجرائية تتعلق بتفعيلها (دستورية وقانونية/مهيكلة ومراقبة)

الصنف الثاني: أركان جوهرية ينبني عليها مفهوم السيادة ومعناها (سامية وشاملة / مطلقة وعامة / دائمة ومستمرة / غير قابلة للتصرف والاجتهاد لا تتناقض مع استقلاليتها وحيادها)

الصنف الاول هو كما أشرنا إجرائي، في حين أن الصنف الثاني اي الجوهري فهو ما نهتم بقياس تأثير اعتماد البذور والمشاتل المهجنة عليه ويمكن اعتبار هذه الاركان بنى مكونة لنسق اي تغيير فيه يغير معنى هذا النسق بمعنى انه في حال ضبط تغير في اي ركن فان السيادة في واقع الحال تفقد معناها.

يمثل الصنف الثاني لأركان السيادة نموذجا مثاليا[4] نقيس عليه وبه ما يمكن أن يسببه اعتماد البذور والمشاتل المهجنة في المس أو التغيير أو التحويل لهذا النموذج.

واقع البذور والمشاتل المهجنة في تونس

لم تطرح هذه الظاهرة في البلاد التونسية فقط وإنّما هي ظاهرة كونية عابرة للمجتمعات فقد اندثر خلال القرن الماضي 75% من التنوع الجيني في العالم[5] ومن تداعيات ذلك فقد تراجع معدل استعمال البذور التونسية من 65% سنة 1975 إلى 25% في سنة 2004 حسب تصريح للسيد عمر الباهي كاتب الدولة المكلف بالإنتاج الفلاحي.

رغم أنّ هذا التراجع في اعتماد البذور والمشاتل المحلية متعدد الأسباب -كما أشرنا سابقا إلى الظرف العالمي لتراجع التنوع الجيني إلى الربع- فإن اسباب بنيوية اخرى تعود إلى خيارات سياسية كان لها يد في تعميق هذه الهوة ونقصد بذلك توقيع الحكومة التونسية على خطة

الاصلاح الهيكلي سنة 1986 بضغط من البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والتي تم على إثرها وضع برنامج تعديل هيكلي زراعي يتم بموجبه تحرير الاقتصاد التونسي والقطاع الفلاحي على مراحل بما يعني تخلي الدولة عن السياسة الحمائية للقطاع الفلاحي تدريجيا وترك المجال بالمقابل للقطاع الخاص الذي يمثل في واقع الحال امتدادا للشركات عبر القطرية. فبدل أن يمثل القطاع الخاص قاطرة للاستثمار ومراكمة الثروة على الشاكلة الاوروبية أو الامريكية، فإنه يتحول إلى وسيلة لنقل الثروة من الاطراف إلى المركز أي من دول الانتاج إلى الدول المصدرة للبذور والمتحكمة في انتاجها وتسويقها فيتحول بذلك القطاع الفلاحي من قطاع ضامن للسيادة الغذائية إلى قطاع مفرط فيها.

من نتائج هذا البرنامج ايضا انتصاب 42 شركة تبيع البذور والمشاتل المهجنة وتشتمل على 600 نقطة بيع بمعدل 25 نقطة في كل ولاية، تتولى استيراد هذه البذور من عدة دول أهمها الولايات المتحدة الامريكية/ الصين/ ايطاليا/ فرنسا/ جنوب افريقيا/ هولندا حسب جدول الاستيراد لدى مصالح وزارة الفلاحة. هذا الانتشار اللامركزي والمكثف لنقاط توزيع البذور والمشاتل المهجنة يكشف عن استراتيجية تهدف إلى تعميمها مما يجعلها قريبة من الفلاح وفي متناوله خاصة أنها في البداية كانت توزع مجانا ثم بأسعار رمزية إلى أن بلغ سعر الكلغ الواحد من بذور الدلاع او البطيخ على سبيل المثال 1342دولارفألف بذرة من بذور البطيخ المهجنة تباع بحوالي 100دت اي بسعر 100مي للبذرة الواحدة، هذه الكلفة الزائدة إضافة إلى التسميد الكيميائي المكثف (5كلغ في الهكتار سنة 1975 إلى 25 كلغ في الهكتار سنة 2004) والري المكثف باعتبار أن البذور المهجنة سقوية على خلاف البذور البعلية المحلية من شانها أن تساهم في ارتفاع الكلفة الانتاجية ما يمثل خطرا على القدرة التسويقية للمنتوج التونسي محليا وفي الاسواق الخارجية اضافة إلى استنزاف الموارد المائية وتلويث التربة والاغذية كيميائيا ما يمثل خطرا على الصحة العامة للأفراد.

إيجابيات وسلبيات البذور والمشاتل المهجنة

على الرغم من اننا نتتبع في هذا المقال الاخطار المهددة للسيادة الوطنية الناجمة عن التخلي عن البذور والمشاتل المحلية لصالح المهجنة منها إلا أن الامانة العلمية تحتم ابراز الايجابيات والسلبيات المتعلقة بها على حد السواء وفيما يلي جدول مقارنة يبرز أهم هذه الخصائص (انظر ص. 15)

بالنظر إلى هذا الجدول فان البذور والمشاتل المحلية هي الافضل على المستوى الاستراتيجي للقطاع الفلاحي وبالتالي للاقتصاد ككل الذي ينعكس بدوره على المجتمع وهي تستجيب للأركان المكونة للنموذج التحليلي المعتمد في هذا المقال. في حين أن البذور والمشاتل المهجنة تستهدف السيادة في :

ا- الشمولية : اذا ما كانت السيادة في جوهرها نقيضا للتبعية فإن السيادة التابعة ليست سيادة اي أن السيادة غير قابلة للتنسيب وقد بينا كيف أن هذه البذور المستوردة هي الية تخلق الارتباط الهيكلي بالأخر وتمثل كذلك احدى ميكانيزمات التفريط في الاستقلالية والثروة ما ينفي على كل من الدولة والفلاح التونسيين شرط امكان التحكم في القطاع ومن وراءه التخلي عن السيادة الغذائية .

ب- الاطلاقية : اذا كانت السيادة الغذائية مرتبطة بشكل عضوي بالسيادة الوطنية بمعنى أنها إحدى أشكالها المتكثرة فإن انعدام شكل من هذه الاشكال يضع الكل محل تساءل.

ج- الاستمرارية: اعتماد البذور والمشاتل المهجنة في الفلاحة التونسية يشكل خطرا محدقا باستمرارية السيادة نظرا لما تمثله من أسلحة موجهة ضد المجتمع على المستوى الصحي وللموارد الطبيعية على المستوى الاقتصادي ولحق الانسان في المياه على المستوى الحقوقي لا سيما وأن البلاد التونسية ترزح تحت خط الشح المائي

د- عدم القابلية للتصرف : قد يبرر البعض اعتماد القطاع الفلاحي على هذا النوع من البذور والمشاتل باي تبرير ممكن لكن مبدا عدم القابلية للتصرف في السيادة يقف حائلا دون ذلك وما نستنتجه هنا هو أن مفهوم السيادة لا يحتمل التنسيب فإمّا أن تكون السيادة مطلقة أو لا تكون.

نحو بديل مجتمعي

على الرغم من دعم الدولة

Nadine Redlich/Unsplash

> "البذور والمشاتل المحلية هي الأفضل على المستوى الاستراتيجي للقطاع الفلاحي وبالتالي للاقتصاد ككل"

للمؤسسات التي توزع هذه البذور والمشاتل وذلك عن طريق سن القوانين والتشريعات الملائمة فإن تداعيات هذه السياسة الاقتصادية والتشريعية مثلت تهديدا لمصالح الفئات الاوسع من المجتمع التونسي لما فيها من استهداف للمنتج والمستهلك على السواء للمواد الفلاحية التي يتحمل نتائجها فعليا وبصفة مباشرة الفلاح والمستهلك عبر ارتفاع الاسعار في الانتاج والتسويق وما ينعكس على جودة الحياة للأفراد اضافة إلى علاقة الارتباط والتبعية القائمة بين الفلاح وشركات البذور والادوية التي تلتهم الجزء الاكبر من انتاجه. هذا الوضع كان سلاحا ذو حدين اذ أن انخفاض مردودية هذا القطاع دفعت العديد من الفلاحين الصغار والمتوسطين إلى التخلي عن هذه المهنة وتوجيه ابنائهم إلى مهن اخرى في حين أن جزء مهما من هذه الفئة من الفلاحين اختار نهج المقاومة عبر آلية تجميع البذور المحلية وإكثارها وتوزيعها عبر مبادرات فردية على وسائل التواصل الاجتماعي تحولت في فترة وجيزة إلى حملات موسعة وعمليات منظمة لتبادل البذور التي ادت إلى تبادل اشياء اخرى مع البذور كالأفكار والخبرات التي من شانها مقاومة الوضع الذي قمنا بتوصيفه ومن وراء ذلك مقاومة حقبة وبرنامج متكاملين من سياسة الدولة ما يجعل رد الفعل الشعبي المهيكل افتراضيا والنشط ميدانيا يستجيب لما عرفه سيرج موسكفيتشي بالأقلية النشطة [6] (التي يولد فعلها تأثيرا وتغييرا اجتماعيا) وهذا ما تمت ملاحظته ميدانيا اذ مكنت هذه المبادرة إلى تجميع اكثر من ثلاثين الف فرد من الفلاحين الصغار والمتوسطين والباحثين في مختلف الاختصاصات والمهتمين بالشأن البيئي ايضا هذا التجمع الافتراضي الحر افرز قيادات لهذه المجموعة دون مهمات اسمية لكن بمهمات فعلية ميدانية فالسيد زياد زيدون (حسب التسمية الواردة بالمجموعة الافتراضية الفلاحة السليمة والغذاء الصحي) هو أول من قام بخلق المجموعة افتراضيا وهو مديرها وقد سوّق لحملة التضامن مع السيد حافظ كرباعة النشط ميدانيا عبر إنتاج وتوزيع البذور والمشاتل المحلية على اختلاف اصنافها. أما كل من السيدين سعيد بن ناصر وحسن الشتيوي فيمثلان مرجعين في المعارف والخبرات الزراعية التقليدية الناجعة مثل أوقات وطرق السقي والغرس والزراعة وإعداد انواع السماد العضوي...الخ وقد تمكنا من حيازة قيمة اعتبارية مستمدة من معارفهما وخبراتهما. فهذا الرباعي يمثل القيادة الفعلية لهذه الأقلية النشطة التي تمكنت من احداث تغيير في العلاقات بين الفلاحين اساسا اذ عمقت قيمتي التضامن والتعاون بين المنتمين إلى القطاع كما انها مكنت من احياء جزء من التراث التونسي وتثمينه.

هذه التجربة إضافة إلى عدة تجارب اخرى مثل تجربة واحات جمنة هي محطات تعكس معارضة الفاعلين الاجتماعيين في القطاع للنظام في شكله الحالي مما يجعلنا نتساءل عن مدى فاعلية هذه المعارضة في اصلاح القطاع فهل أن هذه الأقلية النشطة تمثل معارضة عقلانية ام أنها مجرد مغامرة يسعى الفاعلون فيها إلى التموقع وانتزاع الاعتراف من المنظومة الحالية ؟

مثل هذه الأسئلة لا يمكننا الإجابة عليها في هذا الصدد لعدة أسباب أهمها ضيق المجال وتفرع الظاهرة وتعقدها مما يجعلها بحاجة إلى بحث نفرده لها غير أن الملاحظات الاولية تطرح إمكانية تثبيت الفرضية الثانية فبعد أن تمكنت المجموعة من توزيع مئات الالاف من البذور والمشاتل المحلية وادارة حملة للتعريف بهذه القضية الوطنية باقتدار.

بالعودة لما سبق فإن مفهوم السيادة الوطنية في ضوء نتائج هذه الدراسة يخضع لتحوير جوهري يتعارض مع مقومات السيادة واهمها الإطلاقية وعدم قابليتها للتجزئة مما ينفي امكان الحديث عن سيادة وطنية في ظل تبعية غذائية واقتصادية وعلمية فالقانون المتعلق بالبذور والشتلات والمستنبطات النباتية في فصله الخامس يمكن "العناصر الاصلية للنباتات الهجينة والاصناف التركيبية تبقى سرية اذا ما طلب مستنبطوها ذلك"[7] وهذا بحد ذاته يمثل خطرا إذا ما تعلق الأمر بتأثيرات سيئة للبذرة أو النبتة المهجنة إذ تبقى عناصرها الاصلية سرية في حال طلب المستنبط ذلك. أما في ما يخص الفصل الرابع من نفس القانون فإنه لا يسمح إلا بتسجيل البذور الحاملة للصفات التالية " متميزة وثابتة ومتجانسة وذات قيمة زراعية هامة " فرغم غموض هذا الفصل واشكالية تحديد المقاييس المعتمدة لهذه الصفات أو مبررات ادراجها فان هذا الفصل يعطي " حق التسجيل الحصري لصالح البذور الهجينة. وبذلك يحضر القانون التونسي بيع وتسويق البذور المحلية. حيث انه لا يمكن بيع نوع من البذور بخلاف تلك المدرجة في السجل. وبذلك فقدت البذور المحلية تدريجيا واخذت مكانها البذور الهجينة "[8]

من الممكن أن نتفهم مثل هذا الفصل المريب إذا ما علمنا أن البلاد التونسية تستورد سنويا حسب جدول الاستيراد بوزارة الفلاحة بذورا بقيمة 97 مليون دينار فإضافة إلى التبعية الزراعية والغذائية فإن استيراد البذور والمشاتل المهجنة يمثل استنزافا لموارد الدولة من العملة الصعبة وتعميق التبعية الغذائية ويساهم في مزيد عجز الميزان التجاري.

> "
>
> مجتمع الفلاحين والمهتمين بالقطاع الفلاحي يمثلون أقلية نشطة حسب التعريف الذي قدمه سارج موسكفيتشي
>
> "

الخاتمة

فيما يلي نلخص اهم ما جاء في هذا المقال إذ وجب أن نذكّر بأنّ السيادة الوطنية كلّ لا يتجزأ وأن أي عملية استثناء أو تجزئة تفقد المفهوم معناه وتفرغه من محتواه.

كما أننا كنا قد قابلنا بين البذور والمشاتل المهجنة مع نظيرتها المحلية ولم نقل الطبيعية أو الاصلية وذلك يعود إلى أنه لا توجد بذور ومشاتل محلية مهجنة أو مستوردة واصيلة في نفس الوقت.

إضافة إلى البذور المهجنة لم تتفوق إلا في كم الانتاج على البذور والمشاتل المحلية لكن بحساب الجدوى والمردودية فأن البذور المحلية هي الأجدى على المدى المتوسط والبعيد خاصة في حفظ الموارد وتثمينها كالمياه والتربة والتنوع الايكولوجي إضافة إلى الأخطار الصحية الكامنة في النباتات الهجينة وذلك يعود لحاجتها المفرطة للأسمدة الكيميائية والادوية.

لا ننسى كذلك التذكير بأن مجتمع الفلاحين والمهتمين بالقطاع الفلاحي يمثلون أقلية نشطة حسب التعريف الذي قدمه سارج موسكفيتشي إذ أن لهذه المجموعة تأثيرا ومساهمة في تغيير اجتماعي : يتمثل التأثير في التعريف بهذه القضية وإعطاءها صدى مهمّا إذ كتبت العديد من المقالات في الصحف المحلية والعربية اضافة لإنجاز تلفزيون دويتشفيله الألماني لتقرير حول هذه الظاهرة. زد على ذلك أنها لفتت نظر الباحثين في مختلف الاختصاصات وبعض الجمعيات للمساهمة في النقاش القائم.

أما على صعيد التغيير الاجتماعي فإننا نلمس تغيرا في العلاقات بين الفلاحين الصغار والمتوسطين يسير نحو امكانية بعث هيكل قانوني على غرار اتحاد الفلاحين أو احداث كتلة ضمن هذه النقابة.

يتمثل الاشكال الاول الذي على الفلاحين حله هو انقاذ ما تبقى من بذور محلية عن طريق الآلية التي استنبطوها والمتمثلة في الاكثار والتوزيع أو التبادل.

كما أن التشريعات التي تكرس هذا الوضع تقف أمام أيّ محاولة جدية لتغيير هذا الواقع وإحداث نقلة فلاحية ترسخ مبدأ السيادة الوطنية.

	البذور والمشاتل المحلية	البذور والمشاتل المهجنة
الري	متحملة ومقاومة للجفاف باعتبار تأقلمها مع الظروف المناخية المحلية وهي بعلية أو تحتاج إلى ري خفيف ومتقطع	شديدة الحساسية تجاه الجفاف والحرارة المرتفعة وتحتاج إلى ري مكثف ومستمر
مقاومة الامراض	مقاومة للأمراض وتتميز بمناعة جيدة للأمراض المحلية وبقدرة على التأقلم مع الامراض الوافدة وغير متطلبة للأدوية والعقاقير الكيميائية	شديدة الحساسية تجاه الامراض بأنواعها وتتطلب عدة ادوية كيميائية مثال يتطلب تفاح «انا كريستا» 21 عملية مداواة في دورة الانتاج الواحدة
التربة	غير ملوثة للتربة ومتأقلمة مع مختلف انواع التربة الرملية والطمي والطينية	ملوثة للتربة ومتأقلمة مع مختلف انواعها
الإنتاج	انتاج متأخر نسبيا مثلا بالنسبة للزيتون تحتاج الشجرة من 5 إلى 7 سنوات لتبدأ عملية الانتاج غير أن الاشجار تعمر لمئات والاف السنين وكلما زاد سن الشجرة ارتفع معه الانتاج ما يعني امكانية تأقلم اكثر مع الظروف الطبيعية	انتاج مبكر من السنة الثانية تبدا الشجرة في الانتاج وفي بعض الانواع منذ السنة الاولى لكن بمعدل انتاج 12 كلغ للشجرة والاشجار ليست معمرة بل يجب التفكير في تعويضها منذ سن 15 عام
كلفة الإنتاج	عادية	مرتفعة نسبيا نظرا لمتطلبات الشجرة أو النبتة للأدوية والسقي المكثف
التسويق	منتوج بيولوجي مرتفع الثمن والمردودية الاقتصادية مطلوب في الاسواق المحلية والعالمية نظرا لندرته	منتوج منخفض الثمن والمردودية الاقتصادية متوفر في الاسواق العالمية
الاستتباعات العملية	تساهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي والسيادة الغذائية كما تساهم في دعم الاحتياطي الوطني من العملات الاجنبية والابقاء على الارباح داخل السوق المحلية	تكرس التبعية الغذائية والزراعية وبالتالي تهدد السيادة الوطنية وهي تمثل وسيلة لنهب الاقتصاد الوطني

الهوامش

1. الفصل عدد4 من القانون عدد 42 لسنة 1999المورخ في 10 ماي 1999
2. عبد الوهاب الجمل، "السيادة مقوماتها وأركانها"، في www.lediplomate.tn
3. نفس المرجع
4. بالمعنى الفيبري للكلمة نسبة الى عالم السوسيولوجيا ماكس فيبار
5. ، ايمن عميد، "البذور المحلية :تاريخ من النهب" في http://www.siyada.org/ar/siyada-board/
6. http:// psychaanalyse.com/pdf/psycho_minorites_actives.pdf
7. الفصل 5 من القانون عدد 42 لسنة 1999 المؤرخ في 10 ماي 1999
8. مرجع مذكور
9. http:// www.courdescomptes.nat.tn/Ar/%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B7%D8%A7%D8%B9%D8%A7%D8%AA_58_4_-1_5_16_2015_2017_%D9%85%D9%86%D8%B8%D9%88%D9%85%D8%A9%20%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B0%D9%88%D8%B1%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B4%D8%AA%D9%84%D8%A7%D8%AA__232

سيادة الشّعب في نظام الاقتراع على الأفراد

بقلم: علي غوائدية
باحث في الصّحافة والاتّصال

" يستمدّ هذا الطّرح "البديل"، الّتي ما فتئ ينادي به سعيّد منذ 2011، مسوّغاته النّظرية والمبدئيّة من أزمة الدّيمقراطيّة التّمثيليّة "

المقدّمة

شرع رئيس الجمهوريّة التّونسية قيس سعيّد في تنفيذ نموذج "الدّيمقراطيّة القاعديّة" أو "الدّيمقراطيّة التّصعيدية" بديلا عن الدّيمقراطيّة التّمثيليّة لتمثيل الشّعب في اتّخاذ القرار وفي ممارسة السّيادة. وقد وضع، عصبا لهذا النّموذج، نظام الاقتراع على الأفراد مع إمكانية سحب الوكالة من نائب الشّعب في حالة إخلاله بعهوده التّمثيليّة الّتي قطعها لناخبيه. يستمدّ هذا الطّرح "البديل"، الّتي ما فتئ ينادي به سعيّد منذ 2011، مسوّغاته النّظرية والمبدئيّة من أزمة الدّيمقراطيّة التّمثيليّة الّتي تجلّت في فيما عُرف بـ"السّياحة البرلمانيّة" تحت قبّة البرلمان الّذي كان قد شُكّل على ضوء نتائج الانتخابات التّشريعية لسنة 2014. فبفعل هذه السّياحة الّتي وسمت كتلة حزب حركة نداء تونس صعدت كتلة الحزب الفائز الثّاني (حركة النّهضة) إلى المرتبة الأولى ليُعاد تشكيل المجلس النّيابي خلافة لإرادة النّاخبين.

في المقابل، لا يُعمينا دخان أزمة هذا النّموذج التّمثيلي عن النّموذج البديل وتمحيصه وتفكيكه وتأصيله في تاريخه، وفي السّياق التّونسي بالذّات من حيث المساحة والسكّان والدّوائر الانتخابية وغيرها، وباستنطاق عقل صاحبه (رئيس الجمهورية قيس سعيد)، ليكون التّساؤل: ***إلى أيّ مدى يمكن لنظام الاقتراع على الأفراد أن يحقّق سيادة المواطنين ويعبّر عنها؟*** نقارب في هذا المقال[1] أطروحة قيس سعيّد السّياسية هاته مقاربة نقدية مستأنسين في ذلك بالتّجارب المماثلة في العالم.

أوّلا: الاقتراع على الأفراد تحقيقا للسّيادة

الفرق بين الاقتراع على الأفراد وعلى القائمات

يعني الاقتراع (suffrage) "المناشدة بالنّيابة" (sofrage)[2] ، وهو عمليّة انتخاب ممثّلين عن النّاخبين. ويتفرّع إلى نُظم عديدة أهمّها الاقتراع على الأفراد والاقتراع على القائمات. يكمن الفرق بين هذين النّظامين في كون الأوّل أكثر تخييرا للنّاخب، أي أنّه يختار شخصا واحدا – محل ثقة واقتناع بالنّسبة له-دون أكون يكون مجبرا على اختيار أفراد آخرين مرفقين بالقائمة المترشّحة نفسها. في حين، يُجبر النّظام الثّاني النّاخب على التّصويت على مترشّحين غير معروفين أو غير محلّ ثقة أو حتّى سيّئين بالنّسبة له، أو على التّخلي عن فرد محلّ ثقة. فالاقتراع هنا على الكّل أو ضدّ الكّل، وهو نظام تستغلّه الأحزاب والأطياف السّياسية الأخرى المترشّحة لتمرير مُرشّحين غير معرفين أو سيّئي السّمعة تحت يافطة شخصية اعتباريّة أو رمزيّة أو محلّ ثقة. ويتمّ استغلال صورة الأفراد المندوبين للتّغاضي عن آخرين "منبوذين" سياسيا.

مثّلت إكراهات نظام الاقتراع على القائمات المُبيّنة أعلاه مدار حفيظة رئيس الجمهوريّة التّونسية قيس سعيّد منذ كان أستاذا للقانون الدّستوري وقبل أن يكون مرّشحا رئاسيا. فكان ينهال في كلّ فرصة على هذا النّظام الانتخابي بالنّقد والتّقريع. ويُعدّ بذلك عرّاب نظام الاقتراع على الافراد، في تونس، وحجّته في ذلك كون النّاخب له الإمكانية لاختيار شخص بعينه يعرفه ويثق به لتمثيله. لكن السّؤال؛ هل يعزّز نظام الاقتراع على الأفراد سيادة النّاخبين؟ وفيم يتمثّل ذلك؟ وما حظوظه؟

وجوه سيادة الشّعب في الاقتراع على الأفراد

ونحن بصدد دراسة حالة الدّيمقراطية التّصعيدية بواسطة نظام الاقتراع هذا، لا بدّ من العودة إلى صاحب الطّرح قيس سعيّد. ففي حوار صحفي له مع جريدة "الشّارع المغاربي" بتاريخ 11 جوان 2019 [3]، بصفته مترشّحا للانتخابات الرّئاسيّة آنذاك، بيّن سعيّد مسألة "التّصعيد منا المجالس المحلّية الى الجهوية ثمّ إلى البرلمان" كالآتي؛

النّاخبون في العمادات--- >نائب واحد --> المعتمديّة ----> نائب واحد --- >مجلس جهوي

---> نوّاب----> البرلمان

ولم تتّضح معالم هذا الطّرح حتّى

صدور دستور الجمهوريّة التّونسيّة في 25 جويلية 2022: لم يعد المجلس النّيابي واحدا، بل "مجلسين نيابيين (مجلس نوّاب الشّعب والمجلس الوطني للجهات والأقاليم) "يفوضّ لهما الشّعب صاحب السّيادة" "الوظيفة التّشريعية" [4]. تُحقّق سيادة النّاخبين على الأفراد المنتخَبين في مستويات عديدة تبدأ من إجازة التّرشح (التّزكية) على الصّعيد المحلّي في نذاق الدّائرة الانتخابية وفي إمكانية سحب الوكالة لاحقا.

ثانيا: حدود السّيادة على مجلس الجهات والأقاليم

فيما يتعلّق بالمجلس الوطني للجهات والأقاليم، يواجه نظام الاقتراع على الأفراد امتحان الوفاء لعهد ضمان سيادة النّاخب. فلئن كانت هذه السّيادة دائمة بمفعول إمكانيّة سحب الوكالة، فإنّها تتضاءل إن لم نقل تنعدم في المستويين الجهوي والوطني. إنّنا ننتقل من سيادة النّاخب على الفرد المُنتخِب إلى سيادة النّائب المنتَخب.

من سيادة النّاخب إلى سيادة النّائب

"يتكون المجلس الوطني للجهات والأقاليم من نواب منتخبين عن الجهات والأقاليم. ينتخب أعضاء كل مجلس جهوي ثلاثة أعضاء من بينهم لتمثيل جهتهم بالمجلس الوطني للجهات والأقاليم. وينتخب الأعضاء المنتخبون في المجالس الجهوية في كل إقليم نائبا واحدا من بينهم يمثل هذا الإقليم في المجلس الوطني للجهات والأقاليم"[5] . بهذا هذا الشّكل يستمدّ النّائب المُنتخب على الصّعيد الجهوي أو المركزي مشروعيته مباشرة من زملائه النّواب لا من منتخبيه الأصليين. فالأمر يصبح متعلّقا بضرب من "سيادة النّواب على النّواب" وليس سيادة المواطنين على النّواب (المُنتخبين). وإذا أردنا تنسيب الأمور، نقول إن النّائب الجهوي أو الوطني نابع من إرادة شعبية محليّة. وهو مدين بالدّرجة الأولى للنّاخب الّذي زكّاه وصوتّ له في النّطاق المحلّي الّذي انحصرت فيه سيادة النّاخب لتحلّ محلّها سيادة النّائب. بعبارة أخرى سيادة المواطن النّاخب بعيدة أو غير مباشرة في مستوييها الجهوي والوطني.

كيف تتوقّف سيادة المواطن النّاخب في المستوى المحلّي؟ لنسلّم ونتفاءل لفكرة سيادة النّائب النّاخب بما هي ترجمان أخلاقي ورمزي لسيادة المواطن الّذي انتخبه، أليست هناك حروب سيادة بين المحلي والمركزي طالما الأمر يتعلّق بسيادتين واحدة مباشرة من الشّعب وأخرى غير مباشرة من نوّاب الشّعب؟ كي يكون النّقد موضوعيّا، حريّ بنا الاستئناس بتجارب مقارنة من التّاريخ. نستحضر في هذا المقام تجربة نقابيّة، تشترك مع الحالة الّتي نحن بصددها في مسألة إدارة الشّأن العام بالنّيابة على أيّة حال. يتمثّل المثال المُستحضر في تجربة نقابيّة إيطاليّة تعود إلى سبعينات القرن الماضي. وكي نبقى ملتزمين بموضوع بحثنا، نرصد وجه الشّبة وبالتّالي مسوّغات المقارنة. فأعضاء الوحدة النّقابيّة في المعمل الواحد يُنتخبهم العملة مباشرة، الأمر مشابه في انتخاب المواطنين لممثّلين في إطار العمادة. وكي يتطوّر الأمر لاحقا إلى انخراط هذه الوحدات في فيدراليات نقابيّة. ينتبه مؤلّف المقال المتكلّم عن هذه التّجربة إلى مفارقة بين تمثيليات مصغرّة ديمقراطيّة في القاعدة واندماجيات

> *أليست هناك حروب سيادة بين المحلي والمركزي طالما الأمر يتعلّق بسيادتين واحدة مباشرة من الشّعب وأخرى غير مباشرة من نوّاب الشّعب؟*

نقابيّة تكرّس بيروقراطيّة كلاسيكيّة في أعلى الهرم التّمثيلي. بل لاحظ نشوب صراعات وتناقضات بين أجسام القاعدة النّقابيّة ورأسها، مشيرا إلى تعزّز العصبيّة للجهات الّتي ينحدر منها أعضاء أحزابا كانت أو غيرها في رأس الجسم النقابي (في مجالس الفيدراليات النّقابيّة). لكنّ هذه التّجربة لم تمنع وجود ضربا من التّوازن بين الانتماء الأصلي للمحليّ والانتماء الوطني الجديد على رأس الفيدراليّة (عقلنة الانتماء) [6].

ينبغي ألا ننشّد كثيرا إلى التّجربة النّقابية أعلاه، فالحياة السيّاسية غير النّقابية، ليظلّ السّؤال القائم هنا، لا سي: ماذا بوسع التّصعيد النّيابي من حلول لاحتمال الانحراف التّمثيلي من الدّفاع عن مصالح النّاخب (المحلّي) إلى الدفّاع عن مصالح الجماعة أو الجهة أو على الأقل إمكانية التّعويم التّمثيلي للمحلّي في خضمّ الجهوي؟ فالنّاخب الّذي انتخب فردا في عمادة "أم الأقصاب" [7]، مثلا، لينوبه على صعيد معتمديّة "سيدي بوبكر"، عسى أن يمرّ إلى مجلس ولاية قفصة، ثمّ إلى المجلس الإقليمي فالمجلس الأعلى (الوطني) للجهات والأقاليم، ماذا تبقّى من سيادة المواطن على نائب رشّحته الجهة والإقليم للصّراع على القرار في المجلس النيابي الوطني؟ كيف سيرتّب النّائب الأولويات هل ينخرط في صراع الأقاليم أم يبقى وفيّا لهمّ المواطن الّذي كان قد زكّاه وانتخبه في العمادة؟ لنقل إنّ هذا لا يمنع ذاك، هذا لا يُنسينا كوننا نتكلّم عن نائب مزدوج الولاء للمحليّة وللجهة وللوطن على حدّ سواء، فما الجديد الّذي أتى به نموذج الاقتراع على الأفراد في إطار عمليّة ديمقراطيّة تصعيدية؟ فيم يفرق عن نظام الاقتراع على القائمات حينئذ في علاقة بالانتخابات البلدية بالذّات؟ ربّما الإجابة تكمن في أنّه يقدّم فردا محلّ ثقة ومعلوم لدى النّاخبين، ثمّ أنه مرفوق بضمانات سحب الوكالة في حال التّنكر للوعود. يمكننا إرفاق هذه الضّمانة وكذلك "السّياحة الحزبيّة" بنظام الاقتراع على القائمات، يحتج طرف مقابل.

ثمّة عنصر تمايز مهمّ بين التّجربة النّقابيّة أعلاه وبين أطروحة قيس سعيّد، يكمن في نظام الاقتراع على الأفراد. فهذا الأخير يمنع المترشّح من التّقدّم باسم الحزب أو المجموعة السّياسية، فالولاء يكون حصرا للنّاخبين وفقا لأسس ديمغرافيّة ترابيّة وليست فكرية ايديولوجيّة. وهنا مربط الفرس، وهنا مدار التّململ والاحتجاج، بل حتّى المقاطعة من عديد الأحزاب السيّاسية. بل الأكثر من ذلك فقد منع القانون الانتخابي الجديد تلقّي التّمويل العمومي، ربّما، تخفيفا لحدّة التّنافس الانتخابي الّذي قد يبلغ حدّ الاستقطاب السّياسي. وقيّدت كذلك الشّعارات الانتخابيّة بعدم الإشارة إلى المترشّحين الآخرين والتّعرض لهم والنّيل من كرامتهم [8]. ومع ذلك لا يمنع نظام الاقتراع هذا المترشّحين من إخفاء انتماءاتهم السيّاسية وتلقيّهم دعما بعيدا عن المسالك الرّسمية، ودفاعهم لاحقا عن المصالح الحزبية ولو بصيغ فرديّة. يتوقّف الأمر على طبيعة النّاخبين في مستويات وعيهم ومدى اتّفاقهم على "سحب الوكالة " من النّائب.

الخاتمة

يُحسب لنظام الاقتراع على الأفراد كونه يحرّر إرادة النّاخب من شرط اختيار مجموعة أو تركها مجملة، بغثّها وسمينها، ومعلومها ومجهولها. كما يسمح للمترشّحين التّقدم بصفاتهم الفرديّة وسِيرهم الذّاتية مبدئين الولاء للنّاخبين وليس للطيّف الّذي ينتمون إليه أو ترشّحوا فيه (القائمة منتمية كانت أم مستقّلة). في المقابل، لا يخلو من حدود ومحاذير، بل وتناقضات، حينما يرتبط بالتّصعيد التّمثيلي بما أنّ السّيادة على النّائب سيادتين واحدة بعيدة نابعة من النّاخب المحليّ وأخرى مباشرة مصدرها النّائب الجهوي والإقليمي. تبقى قضيّة أخلقة الحياة السّياسية[9] وتنقيتها شرطا نراه لازما لبناء مشهد سياسي يتّسم فاعلوه بالمسؤولية والرّوح الوطنيّة.

الهوامش

1. يأتي هذا المقال في سياق بداية تنفيذ مشروع الرّئيس، بعد تعديله للقانون الانتخابي وفتح باب التّرشح "الفردي" للانتخابات التّشريعيّة المزمعة يوم 17 ديسمبر 2022. صحيح أنّ معالم المشروع بدأت تتّضح، لكن تقييمه بصفة نهائية مازال مبكّرا ولا يكون وجيها إلاّ بعد استكمال تطبيقه على أرض الواقع كي نتمكّن من استخلاص العبر والنّتائج من هذه التّجربة.

2. ماثيوز، جو (2021) "الاقتراع العمومي كحق عالمي من حقوق الانسان"، مُستجدّات ورؤى سويسريّة بعشر لغات، الرّابط: https://www.swissinfo.ch/ara/%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D9%88%D9%85%D9%8A-%D9%83%D8%AD%D9%82-%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%8A-%D9%85%D9%86-%D8%AD%D9%82%D9%88%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86/46437040 (أسترجع في 03/07/2022)

3." الشارع المغاربي تنشر حوار قيس سعيد كاملا"، موقع جريدة "الشّارع المغاربي"، 12 جوان 2019،

4. "دستور الجمهوريّة التّونسية الجديد"، الرّائد الرّسمي للجمهوريّة التّونسية، عدد خاص، 18 أوت 2022، ص17

5. المرجع السّابق، ص 26

6. PORTELLI, HUGUES (1978) « Démocratie représentative, démocratie de base et mouvement social », pouvoirs, n°7, p.95-106, URL :https://www.revuepouvoirs.fr/IMG/pdf/Pouvoirs07_p95-106_democratie_base.pdf (récupéré le 03/07/2022), p 100

7. عمادة حدوديّة (مع الجزائر) كانت تتبع ترابيّا وإداريّا معتمدية أم العرائس من ولاية قفصة. ومقتضي التّقسيم الجديد سنة 2015 أصبحت جزءا من معتمديّة "سيدي بوبكر" المُحدثة. كان قد زارها الرّئيس قيس سعيد في الثّمانينات ليدرس من خلالها المرفق العمومي في المناطق النّائية، وفقا لما قد كان أفادني به خلال زيارته لقفصة في سياق حملته التّفسيرية سنة 2019.

8. الفصل 161 مكرّر من "مرسوم عدد 55 لسنة 2022 مؤرخ في 15 سبتمبر 2022 يتعلّق بتنقيح القانون الأساسي عدد 16 لسنة 2014 المؤرّخ في 26 ماي 2014 المتعلّق بالانتخابات والاستفتاء وإتمامه"،

9. كان رئيس الحكومة التّونسية الأسبق يوسف الشّاهد قد طرح ما سمّاه "ميثاق الأخلاق السّياسية" سنة 2019 في سياق تدنّي ملحوظ لمستوى الخطاب السيّاسي في البلاد (المزيد في: غوائدية، علي،" تونس: رئيس الحكومة يوسف الشّاهد يستقطع الحملة الانتخابيّة بـ "ميثاق الأخلاق السّياسيّة"، صحيفة "رأي اليوم"، 18 أفريل 2019، الرّابط: https://www.raialyoum.com/%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%83%D9%88%D9%85%D8%A9%D9%8A%D9%88%D8%B3%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%91%D8%A7%D9%87%D8%AF-%D9%8A%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%B7%D8%B9/(أسترجع في 30/10/2022)

اختلاف الشعوب من اختلاف ثقافاتها

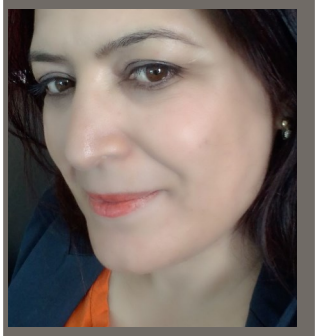

بقلم: كريمة بريكي
أستاذة مساعدة بالمعهد العالي للدراسات الانسانية بزغوان

ممّا وقفت عليه الأنثروبولوجيا الناشئة في القرن التاسع عشر- زمن المدّ الاستعماري الأوروبي تقسيم البشر إلى متحضر، وغير متحضر- أو إلى "متحضر-" Civiliséوبدائي Primitif.وإلى متحضر ومتوحش Sauvageالخ، ولعل هذا التفضيل مردّه مختلف المصاعب المنهجية والفكرية التي تورطت فيها الأنثروبولوجيا الناشئة والتي أشار إلى الكثير منها الباحث الفلسطيني ادوارد سعيد في كتابه "عن الاستشراق".

لنقل أنه ما من شعب لا ثقافة له وما من إنسان لا ثقافة له. فالثقافة في اللغة العربية تعني الحذق في تصور الأشياء، وصناعتها وتَعني أيضا السيطرة أو التفوق في استخدامها وأن كلمة مثقف يصبح معناها نخبويا، وربما طبقيا وقد ينتج عن ذلك إلغاء شعوب برمتها لأنها لا تحذق ولا تسيطر، لا تصنع فهي إذن بلا ثقافة وبدائية أو متوحشة. لذلك لا يمكن أن ننظر الى الثقافة من زاوية معيارية Normative وبالتالي من زاوية قيمية Axiologique

فالمقاربة المعيارية L'approche normativeهي المقاربة التي تنظر إلى الوجود من خلال القيمة. سواء القيمة الجمالية (القبح والجمال)، أو القيمة الأخلاقية (الخير والشر)، أو القيمة المنطقية (الصواب الخطأ) ، أو القيمة الدينية (الحلال والحرام) ، مثال ذلك أن ننظر في عادات الآخرين عامة من منطلق الحلال والحرام عندنا أو من منطلق الذوق الجمالي الشخصي كأن نفضل اللباس الأوروبي على ،'الصاري' الهندي أو "الجبة" على "الحرام الجريدي" أو "الشاشية التونسية" على "الشاشية الليبية"... هذه المسائل هي فقط مسائل تعوّد وطول مراس يكسب المرء ذوقا مخصوصا ويجعله يَميل إلى هذا الشيء بدل شيء آخر والى هذا اللون بدل اللون الآخر وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأحكام الدينية فهي أيضا خاصة بأمة أو بثقافة وهي إما قبول أو إدانة أما حلال أو حرام وما تحلّه ديانة، تحرمه أخرى وربما يبلغ الاختلاف داخل الديانة الواحدة إلى حدّ التقاتل كما بين الشيعة والسنة في الإسلام أو الكاثوليك والبروتستانت في المسيحية.

هذا النوع من المقاربة المعيارية غير علمي وغير موضوعي وغير كونية بل هي تشكل ضربا من ضروب توزيع الاستحسان والاستهجان بدل الانقطاع لدراسة الظاهرة الثقافية على ما هي عليه وبالصورة التي تلقانا بها في واقع الناس وفي مِراسهم اليومي بصرف النظر عن الحكم لها فليس المطلوب من دارِس البوذية أن يصبح بوذيا أو داعية من دعاة البوذية، ولا أن يصبح عدوا لها، بل المطلوب أن يسعى لفهم البوذية من داخل منطقها وبحسب ضروراتها الذاتية وكأنما هي عالم برمته ورؤية للعالم لا تخلو من معانٍ إنسانية لا نملك إلا أن نحترمها في إطار احترام أهلها.

-فهل يعني ذلك أن احترام الثقافات من ضرورات المنهج العلمي في دراستها؟

يتطلب البعد الإبستمولوجي أن نُقبل على دراسة الظواهر كما هي ودون أن نتدخل في وجودها فنزيّفها أو نتقوّل عليها، إذن نحن مدعوون إلى أن نترك لها الوجود الذي هو لها فنصفها ونحاول الإلمام بمكوناتها حتى إذا استوفيناها قدر الإمكان أو أصدرنا بشأنها حكما يبقى بالضرورة مفتوحا على احتمالات ربما لم ننتبه إليها أو صفات فاتتنا كأن نقول بعد ملاحظة الماء من جميع الأوجه أنه سائل لا لون له ولا طعم ولا رائحة فإذا اكتشفنا يوما ما خاصية جديدة أضفناها أو كأن نُعرف الذهب بصفرة اللون ولين الملمس وصلابة الجسم وعدم قابلية الصدأ حتى إذا اكتشفنا خاصية جديدة أضفناها إلى خصائصه المعلومة من قبل، وهو ما يؤكد لنا أن المقاربة العلمية تبقى دائما منفتحة على المستقبل وهي تتضمن في ذاتها الاعتراف الصريح بأنها ليست تامة ولا نهائية وهي أيضا قابلة للمراجعة والتصحيح أي أن المقاربة العلمية هي بالضرورة مقاربة نسبية وقابلة للإثراء إلى ما لانهاية له

ولعل هذا البعد الابستيمولوجي يبين لنا مصاعب البحث العلمي ويلزمنا بعدم المجازفة بإطلاق الإحكام العامة دون استيفاء شروطها، لأنه يطرح مسالة خطيرة _رغم أنها مسالة كلاسيكية في الحقيقة_ هي مسالة العلاقة بين ما نسميه أحكام الوجود Jugement d'existence، وأحكام الوجوب Jugement de valeur، وهذه المصاعب تكون أكبر وأكثر تعقيدا حين يتعلق الأمر بالظواهر الإنسانية التي هي بطبيعتها متعددة الأبعاد فهي بيولوجية وبسيكولوجية واجتماعية واقتصادية ودينية وتاريخية فكل ظاهرة إنسانية هي ظاهرة شاملة كما كان يقول عالم الاجتماع الفرنسي مارسال موس Marcel Mauss.

> ”
> *يتطلب البعد الإبستمولوجي أن نُقبل على دراسة الظواهر كما هي ودون أن نتدخل في وجودها فنزيّفها أو نتقوّل عليها*
> “

قراءة في كتاب "خمسة دروس في التحليل النفسي"*

بقلم: **مريم مقعدي**
طالبة فلسفة
والمشرفة على مجموعة "عكاظيات"
mogadimariem@gmail.com

لقد دفعتني دهشتي بذلك الجانب اللاشعوري "الغامض " -إن شئنا القول – داخل كل إنسان إلى الاطلاع على هذا النص الفريودي الطريف الذي بدا لي بمثابة الغوص في مكامن الجهاز النفسي للإنسان، حيث يقر لنا فرويد في مستهل الدرس الأول أنه لا يعود إليه الفضل في إخراج علم النفس التحليلي إلى الوجود إذ كان آنذاك طالبا منهمكا في تحضير امتحانات السنة النهائية، وإنما هناك من سبقه في إخراج هذا العلم إلى النور وهو طبيب من فيينا يدعى الدكتور جوزيف براور الذي طبق هذا الأسلوب لمعالجة فتاة هستيرية.

كانت هذه الفتاة في مقتبل عمرها عندما ظهرت عليها إثر وفاة أبيها سلسلة من الاضطرابات الجسمانية والذهنية كما تمنعت عن الطعام واستحال عليها الشراب منذ عدة أسابيع رغم عطشها المهلك وأصابها أيضا اختلال في النطق فعجزت على فهم لغتها أو حتى التكلم بها، وكانت أيضا تتعرض بشكل مستمر لحالات من الهذيان والغيبات. ويقرّ فرويد في هذا الإطار أن هذا المرض ليس داء عضويا خطيرا في المخ وإنما "هي حالة غريبة غامضة أطلق عليها الأطباء اليونانيون منذ القديم اسم هستيريا". وعندما تكون المريضة في حالة من الغيبة والهذيان كانت عادة ما تهمس بكلمات متعلقة أساسا بتلك الحادثة وبماضيها، إلى أن تفطن د.براو إلى الأمر وطلب منها إعادة نفس الكلمات بعد أن وضعها تحت ضرب من التنويم المغناطيسي. ولعل هذه التقنية تمثل أولى خطوات علم النفس التحليلي، الذي سيفجر من خلالها المحلل النفسي العقد والكبوات النفسية الكامنة داخل المريض ليضعها وجها لوجه معه غاية مواجهتها وعدم التنكر لها من هنا يمكن أن نستشف إذن قيمة المعالجة من خلال الكلام التي ستمثل بعد ذلك الركيزة الأساسية في نظرية فرويد في التحليل النفسي، ذلك أن وجه الصعوبة الأساسي هنا يكمن في أن المريض يكتم ما يرغب فيه من أشياء أو ما يتعرض له من حوادث ولا يضعها موضع حديث ومساءلة لذلك تعيد هذه الأحداث والرغبات نفسها في شكل أحلام أو يمكن تتجسد بشكل واضح أحيانا في هفوات اللسان. يقول فرويد بشكل صريح: " الهستيريون تؤلمهم التذكرات، وأعراضهم هي رواسب ورموز لبعض الأحداث الصادمة، وهذه الرموز هي بتعبير أصح رموز تذكارية". وبعد أن جرّب الدكتور براور إذن تقنية التنويم المغناطيسي وحاول أن يعيد بعضا من الآلام العميقة التي كبتتها مريضته إلى الوجود عادت الفتاة إلى حالتها النفسية الطبيعية وتصالحت في المقابل مع كل الأحداث التي حصلت لها في الماضي فأطلقت على هذا العلاج تسمية " العلاج بالمحادثة " وقد كانت أيضا في كثير من الأحيان تسميه مازحة " تنظيف المدخنة ".

مثّل هذا الاهتمام الجديد بالجانب اللاشعوري في الجهاز النفسي الإنساني انقلابا شاملا على الفلسفة الديكارتية التي عرفت الإنسان طوال تاريخ الفلسفة بكونه ذات واعية تتميز بقدرتها على التفكير. لكن على الرغم من أن الدكتور براور حقق نوعا من "الاكتشاف الباهر" عندما طبق تقنية التنويم المغناطيسي التي استطاع من خلالها أن ينفذ إلى أعماق المريض عبر الكلام والفضفضة وعلى الرغم من إتباع فرويد لهذه التقنية لفترة من الزمن إلا انه سرعان ما تخلى عنها وانتهى به الامر إلى اعتبارها ضربا من الممارسة الصوفية. وفي المقابل اكتفى بالعلاج التطهيري تاركا المرضى على حالتهم الطبيعية. إذ يقول صراحة معبرا عن قلقه "بدا ذلك في أول وهلة عملا جنونيا لا حظ له من النجاح إذ كان المقصود أن احمل المريض على أن يعرفني بشيء لا اعلمه أنا ويجهله هو أيضا فكيف آمل أن أتمكن من التوصل إلى ذلك " خاصة وأن المريض الذي يجهد نفسه كي يعيد هذه الذكريات المنسية إلى حيز الشعور يعتمد أسلوب " المقاومة " كي لا تكون ذكرياته مكشوفة للمحلل النفسي بشكل فاضح. وبناء على فكرة المقاومة هذه، حاول فرويد أن يبعد فكرة المقاومة لدى المريض وذلك بحمله تدريجيا على التكلم بكل ما يتبادر إلى ذهنه. وعلى الرغم من أهمية فحص الخواطر العفوية الواردة ببال المريض إلا أن ثمة طريقة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ألا وهي تحليل الأحلام وتأويلها باعتبارها "أسهل طريق لمعرفة اللاشعور وأمتن وأرسخ أساس لأبحاثنا" مثلما عبّرعن ذلك فرويد. ولكن إن كانت الأحلام تكتسي هذه الأهمية فلماذا عندما ننهض من النوم يكون موقفنا منها موقف احتقار وتجاهل؟

يبدو أن اغلب الناس يسارعون إلى

> *حاول فرويد أن يبعد فكرة المقاومة لدى المريض وذلك بحمله تدريجيا على التكلم بكل ما يتبادر إلى ذهنه*

تجاهل أحلامهم ووضعها في دائرة النسيان لأنها تظهر في غالبية الأحيان بمظهر فاحش مناف للأخلاق الجماعية التي رسمها لنا الأنا الأعلى. يؤكد لنا فرويد في الدرس الثالث من هذا الكتاب إن الأحلام ليست غريبة عن صاحبها كما هي ليست "غير مفهومة " مثلما نذهب إلى ذلك جميعا. وفي هذا الإطار يقدم لنا فرويد مثال الطفل الصغير – ابتداء من عام ونصف- الذي تتعلق أحلامه في العادة بتحقيق رغبات أنشأها في اليوم السابق في نفسه دون أن يحققها فيكفي إذن أن نعرف ما عاشه الطفل في اليوم السابق حتى نتمكن من تفسير أحلامه. بهذه الطريقة إذن يفسر لنا فرويد كيفية تشكل الأحلام لدى الكبار لكنه يشير إلى أن الفرق الوحيد بين أحلام الصغار وأحلام الكبار يكمن في أن أحلام هذه الأخيرة قد تنكرت وتغيرت ملامحها "والفرق بين منشئها النفسي الأصيل وبين صورتها الأخيرة المعبرة عنها فرق كبير جدا" فما على الإنسان إذن إلا أن يفك رموز أحلامه ويزيل عنها ستار الغموض الذي يغطيها حتى تعود إلى حيز الشعور.

إضافة إلى ذلك يستنتج فرويد في نهاية الكتاب أن اضطرابات الحياة الجنسية تعد من أبرز أسباب المرض فالأعراض المرضية الحادة التي يعيشها المريض تكون وبلا شك مرتبطة بتجارب الحب التي عاشها المريض في الماضي وخاصة في فترتي الطفولة والمراهقة اللتين ستحددان بعد ذلك كامل حياة الإنسان. يتولد عن هذه الطاقات الجنسية المكبوتة نوع من الحرمان الذي سيكون بعد ذلك مصدرا أساسيا للقلق والألم، لذلك نجد المريض يسعى إلى أن يعوض هذا الحرمان عبر الوسائل التي ذكرناها سابقا (الأحلام وهفوات اللسان...) بل أكثر من ذلك يمكن أن يحتد الألم أكثر حتى يصل إلى

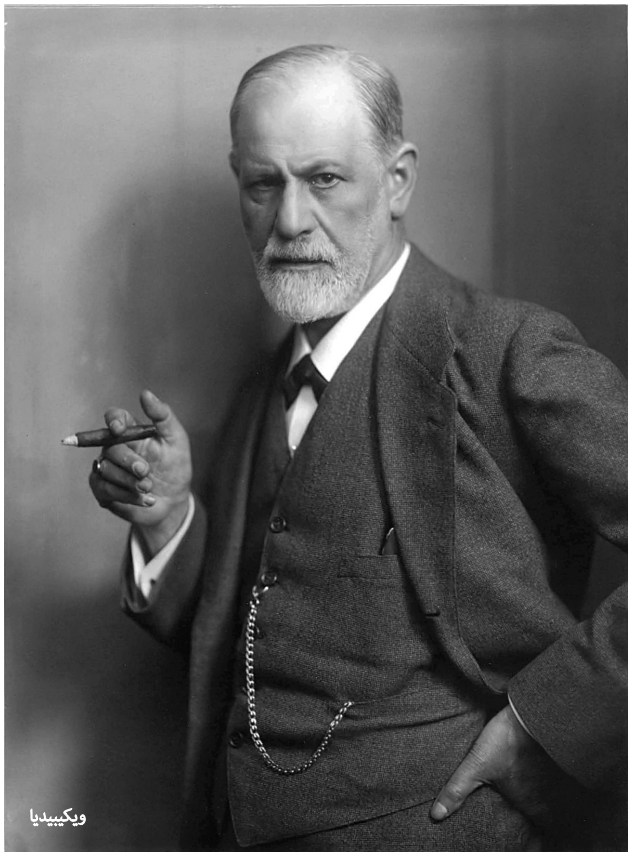
ويكيبيديا

حد اقتراف بعض الجرائم الشنيعة. ولكن أي شعور بالذنب والحرمان هذا الذي يجعلنا نقترف مثل هذه الجرائم وما الذي يمكننا أن نفعل حتى نتخلص من هذه الطاقات الجنسية المكبوتة؟

يقترح علينا فرويد في نهاية الكتاب أننا يمكن أن نحقق رمزيا رغباتنا الممنوعة في الواقع وذلك عبر ممارسة الفن في مظاهره المتعددة كالغناء والرسم والمسرح أين تتجلى "إبداعات الإنسانية " على حد قول هيغل. أيضا لا ينبغي علينا أن نهمل " الجانب الحيواني الكامن في طبعنا". وفي هذا الإطار يقدم لنا فرويد مثالا طريفا هو مثال حصان مدينة شيلدا فائق الجمال. فعلى الرغم من جماله الباهر وقوته الخارقة، كان اعلافه يتطلب نفقات باهظة جدا فقرروا كل يوم أن ينقصوا له حبة واحدة من العلف حتى يتعود على الاستغناء على الطعام كليا لكنه للأسف مات عندما حرم من أخر حبة علف. يمكن أن نستنتج إذن من هذه القصة الطريفة أن حصان شيلدا مات جوعا لأنه حرم من الأكل حتى لو كان ذلك بشكل تدريجي. كذلك هو شان الإنسان.

* المؤلف: سيغموند فرويد

تقديم وتعريب: رضا بن رجب وعبد الرزاق الحليوي

منشورات دار المعرفة، تونس، 1991.

> يستنتج فرويد في نهاية الكتاب أن اضطرابات الحياة الجنسية تعد من أبرز أسباب المرض

قط كهذا... قصة لفرانسواز جيرو

ترجمة: **رجاء عمّار**

باحثة في علوم الإعلام والاتصال

شاعرة وقاصّة

rajabalsam@gmail.com

حين بادر القط بالكلام، ذهل آلان لوجياي لوهلة، إذ أنصت بوضوح:
-طاب يومك، هل السكنى جيدة في هذا المنزل؟
لقد دخل القط ذو الفرو الجميل المرقط عبر النافذة وجلس على مؤخرته يرمق الرجل الذي اعتقد أنه واهم، فلا ريب أن أحدا ما حدّثه من الخارج. نظر ليتثبت، فوجد الطريق خاليا من المارة. همّ بطرد الزائر المتطفل، غير أنه لم يعثر له على أثر.
تكدّر مزاجه، عاد للجلوس وراء مكتبه للانكباب مجددا على المخطوط الذي يشتغل عليه وهو محاولة بحثية اختار لها عنوان: اللامعقول في الإدراك الحسي.
كانت القاعة المطلية بالأحمر عامرة بشكل كبير بالكتب، يبعث جوها الدفء والراحة، فيها أريكتان للاسترخاء مع إنارة خافتة، فالضوء مركز على المكتب والحاسوب.
انغمس في بحثه بعد أن استعاد الخيط الناظم لأفكاره، لكن، بوثبة واحدة، قفز القط على لوحة المفاتيح التي كان يرقن عليها، فأمره منزعجا بالابتعاد والمغادرة، بيد أن القط جلس على المكتب وسأله:
- لماذا أنت متضايق؟ لن تظفر مني بشيء ما دمت تخاطبني بهذه النبرة!
بهت آلان وبالكاد رد متلعثما:
- لكن.. أنت تتكلم!
- جميع القطط قادرة على الكلام، غير أنها لا ترغب في ذلك
- ما اسمك؟
-السيدة التي كنت أقطن عندها أسمتني إيزيدور
خاطب لوجياي نفسه: لقد غدوت مجنونا. أنا بصدد التحول إلى مخبول!
بعثر إيزيدور بقائمته الأمامية الأوراق المشتتة على المكتب، فصاح الرجل:
- لا تفعل ذلك... إنه مخطوطي!
وانحنى للملمته، فاستغل القط الفرصة للقفز حذوه ولعق رقبته بيسر، وعلق: أوبيوم للرجال من سان لورون... عطر ممتاز!
شعر لوجياي بالإحباط، ما دفعه إلى الاعتقاد أن تيروندو هو الذي أرسل هذا الحيوان لبلبلته، لكنه سرعان ما استدرك مقرا بسذاجة هذه الفكرة، فزميله لديه ثلاثة قطط غير أيا منها لم يتكلم مطلقا.
انتقل القط إلى العبث بالأقلام، فقال له آلان:
- أنصت إليّ يا إيزيدور، إنك لطيف غير إني بحاجة ماسة للاشتغال، هل يمكنك تركي أكتب دون مضايقتي لفترة معينة؟
- بكل تأكيد! سأذهب لاكتشاف بقية الغرف!
حين غادر، هرع لوجياي إلى هاتفه واتصل برقم وهو يرتعش، وهمس لمن رد عليه:
- تعالي، تعالي حالا، أرجوك، تحدث أمور مفزعة في بيتي، لا... ليس هناك شيء خطير، لكن...سأفسر لك متى قدمت!
حين أنهى المكالمة، أحس بالارتياح لأنه أنصت إلى صوت بشري خلافا لذاك الصوت الأجش للقط بنبرته الخاصة.
عاد إيزيدور من جولته الاستطلاعية وصرح مغتاظا:
- الفراش جيد، لكني لم أجد ما يؤكل، ألا تستطيع أن تشتري لي علبة طعام ويسيكاس؟ غفلت عن إخبارك شيئا مهما! ما دمت جائعا، ليس بوسعي تركك تنعم بالهدوء! إنها طبيعتي التي جبلت عليها كقط!
رد لوجياي محتارا:
- علبة ويسكاس! انتظر، لدي فكرة..
حمل هاتفه وأعاد الاتصال بمن سبق وحادثها:
- في طريقك إلى القدوم، اشتري من فضلك، علبة ويسكاس، نعم... تلك المخصصة للقطط.
تدخل إيزيدور محددا:
- بلحم الخروف
فأضاف الرجل مستجيبا لرغبة القط: بلحم الخروف، أسرع، سأوضح لك لاحقا!
تمدد إيزيدور أمام لوجياي الذي أراد الاستفاضة في الحوار معه:
- أخبرني عن سبب تركك لسيدتك
- لم أتركها، فهي تروقني كثيرا وعرفتها منذ كنت صغيرا، لكنها استبدلت العشيق، والجديد رماني عبر النافذة مدفوعا بغيرته لأني أنام على الفراش حذوها... إن نجاتي بعد فعلته تلك لأعجوبة!
-أيها المسكين إيزيدور...
- بعد ذلك، لمحتك وفكرت أن الكتّاب عموما يحبون القططط. أليس كذلك؟
-نعم، معك حق
-أشعر أني سأكون على ما يرام معك تمسح القط بلوجياي وككل القططط لا يلاطف أحدا ولكنه يتولى مداعبة نفسه، وبقي الرجل منبهرا.
رن الجرس، أسرع لفتح الباب في حين توارى إيزيدور تحت الأريكة. دخلت شابة تحمل علبة طعام القطط وسألت:
- ما الذي يجري؟ لقد أفزعتني!
-تخيلي..لقد دخل قط إلى منزلي..
-حقا! وما الحدث المأساوي في ذلك؟
-سترين!
نادى ألان القط:
- إيزيدور! إيزيدور! لقد حضر الطعام!
اخرج من مخبئك!
وضحت الفتاة قائلة:
-لا تلبي القطط النداء أبدا، كما أن اختيار اسم إيزيدور لقط مثير للضحك!
- لا تقولي هذا! ستثيرين حفيظته!
إيزيدور! تعال!
لم يستجب القط، فاقترحت عليه الشابة التي تدعى أدال أن يفتح له العلبة وسيأتي، اتجها نحو المطبخ لتنفيذ الاقتراح، في الأثناء استفهمت:
-ما الذي يمتاز به هذا القط حتى يجعلك في حالة شبيهة؟
-سترين!
فجأة، حضر إيزيدور وانهمك في الأكل، فتركاه ينعم بطعامه، وذهبا للجلوس قرب المكتبة، همس لوجياي: لا بد أنه يشعر بالسعادة!
ردت أدال:
- لقد حدثتني عن أمر على غاية قصوى من الخطورة حين اتصلت بي هاتفيا!
-سترين! إيزيدور! تعال! أحتاجك!
قدم القط متثاقلا وقال وهو يتلمظ:
-شكرا على الطعام! لقد استحوذ علي جوع شديد!
انتفضت الشابة من مكانها وهي تستفهم لوجياي عن سبب تغييره لصوته، فأكد لها أنه لم ينبس بحرف، إنه إيزيدور الذي تحدث..إنه يتكلم!
- لقد أضعت رشدك تماما بسبب هذا القط!
- في المحصلة، ألم تنصتي إليه؟
- لقد سمعت صوتك متغيرا... هل تسخر مني أم ما الذي تقوم به تحديدا؟
- لقد قلت لك أنه يتكلم وروى لي كل ما مر به، كيف تم إلقاؤه عبر النافذة،

Pinterest

الحيوان المسكين! تكلم إيزيدور، تحدث قليلا..
تعجبت أدال وهتفت مستنكرة:
- لقد روى لك! أنت تتلفظ بالحماقات! لن تحتفظ بهذا الحيوان الفظيع!
علا صوت إيزيدور وهو يجيبها:
- أنت هي الفظيعة، جميلة بجسمك الممتلئ المستدير، لكن قلبك مقفر لا عاطفة فيه!
جمدت الشابة في مكانها ولم تستطع أن تحرك ساكنا، فقال لوجياي: هل عاينت الأمر بنفسك! لقد سبق وأخبرتك أنه خطير!، وربّت على القط الذي ماء بدلال، فاحتجت أدال، ولامته على مداعبته لهذا القط الذي شتمها، فأكد لها أن المشكلة التي يواجهانها لا تكمن في ذلك، بل هي أشد تعقيدا.
حملت الشابة القط من جلد رقبته واقتربت من الشباك، فنهاها لوجياي مهددا أنه سيقطع علاقته بها إذا ألقت إيزيدور، فترددت لهنيهة ثم تركت القط الذي سارع بالاختباء مرة أخرى تحت الأريكة.
أعربت عن حاجتها إلى احتساء مشروب إذ ينتابها إحساس أنها فقدت عقلها، فصرح لوجياي متنهدا أنه يقاسمها ذات الشعور:
- في البداية، حسبت أن الهلوسات تملكتني... لكن، لقد سمعته أنت أيضا وأيقنت!
اقتربت من طاولة صغيرة وصبت في كأسين بعض الويسكي الذي أفرغاه في جوفيهما دفعة واحدة.
بادرت أدال بالقول:
- يجب القيام بتصرف ما.
- ما هو؟
-لا أدري..اتصل بخدمة العناية بالحيوان، بالشرطة، أعطه لسيرك..
اندفع القط من مخبئه ووثب ليقف على ركبتي لوجياي وسأله:
- لن تفعل بي هذا، أليس كذلك؟
فطمأنه مؤكدا: لا لن أقوم بذلك، لا تخف ثم وجه خطابة لأدال: لا أستطيع أن أقترف بحقه ما اقترحت!
- إنك تسرف في تدليل هذا القط بما تبديه من تعاطف بالغ!
-إننا في مواجهة ظاهرة خارقة، أنا فيلسوف وما يحصل يثير اهتمامي.
- حيوان قذر! نعم، إنه مجرد حيوان قذر! لا أرغب في رؤيته مطلقا في هذا المكان!
فأجابها لوجياي دون تريث:
- حسنا! لا تأتي مرة أخرى إلى هنا!
صاحت أدال متعجبة:
- هل تطردني! لا! لن أتغاضى وأسمح لك بالتفوه بها للمرة الثانية!
التقطت معطفها وانتظرت لبعض الثواني لعله يتراجع ويناديها ليستبقيها، لكنه، التزم الصمت فغادرت بعد أن أطبقت الباب.
همس لوجياي للقط:
- هل رأيت ماذا فعلت إيزيدور؟
-إنها امرأة حمقاء مغرورة، لقد قدّمت لك خدمة جليلة ستشكرني عليها مستقبلا! أريد أن أخلد إلى النوم الآن..طابت ليلتك.
مضت بعض ساعات، رن خلالها الهاتف مرتين، لكن لوجياي لم يجب، وظل مستغرقا في العمل على مخطوطه مستغلا الهدوء الذي عم.
حين دخل غرفة نومه، بعد أن أكل جناح دجاج وجده في الثلاجة، عثر على القط نائما على الفراش فاستلقى على السرير دون أن يزعجه، وسرى في أوصاله شعور بالحنان وهذه الكرة الدافئة تخرخر بجانبه.
لم يلتق لوجياي مجددا بأدال التي أشاعت أنه مجنون، وذهبت لتعلم زميله تيروندو بذلك: إنه يدعي أن لديه قطا يتكلم. لقد فقد صوابه!، فأجابها أنه هو أيضا لديه قط شبيه:
- انظري... إنه ذاك الرمادي، غير أني لا أخبر الناس بذلك، فهم أغبياء جدا ولن يستوعبوا المسألة، لطالما بالغ لوجياي في الثرثرة!
قدم القط الرمادي يتشمم أدال ثم علق قبل أن يغادر مختالا: لا يروقني عطرك! ، فسارعت الشابة بالفرار فزعة مطلقة ساقيها للريح.
ما زال لوجياي وإيزيدور يعيشان معا في انسجام، إذ استجاب القط لطلب سيده ألا يتفوه بكلمة في حضور الزوار، ويمكنه عرض انطباعاته بمجرد ذهابهم.
لاحظ الرجل أن إيزيدور ذكي جدا وعقد العزم على تقديم محاضرة حوله، يوما ما، في معهد الفلسفة.

جمعية تونس الفتاة

الهاتف: 52223213

البريد الالكتروني: contact@tounesaf.org

الموقع: www.tounesaf.org

فايسبوك: facebook.com/tounesalfatet

تويتر: twitter.com/tounesalfatet

انستغرام: @tounesaf